

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
69
أسطورة
نادى الغيلان
د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

من جديد هو ذا العجوز الثرثار (رفعت إسماعيل) الذى كان قدره أن يلقى أعجب مجموعة من أسرار ما وراء الطبيعة فى عمر واحد ، والذى يعتبره البعض مجرد عجوز مخبول آخر ، ويعتبره البعض شخصية رائعة .. أعتقد أننى واحد من أعضاء هذه القائمة الأخيرة ..

كنت أنوى اليوم أن أحكى لكم قصة رهيبة .. قصة غاية فى التشويق والإمتاع ، تجعلكم تحبسون أنفاسكم وترتجفون ، وتثبون مترًا إذا سعل أحدهم فى الصالة وهو ذاهب إلى الحمام .. كنت أنوى أن أحكى لكم تلك القصة التى ستخلد اسمى فى عوالم الأدب ، ويجلّدها الآباء كى يقرأها أبناؤهم توطئة لأن يقرؤها أحفادهم .. القصة التى سترددها الأجيال القادمة حول النيران ليلاً (إذا شبت الحرب النووية) أو حول جهاز التأين الرقمى (إذا لم يحدث شىء يعطل التقدم) ..

كنت أنوى أن أحكى أروع قصة على الإطلاق .. لكننى نسيتها للأسف ..

لهذا أرجو أن تسامحونى وتكتفوا بهذه القصة ..

لِمَ لا ؟ لا أعتقد أنها سيئة أبدًا .. ليست معجزة فى عالم الأدب تغير كل شىء للأبد ، لكنها برغم ذلك قصة جيدة وأعتقد أنها ستروق للبعض ، وربما تخيف آخرين ..

فقط أرجو أن تعطى كل ذى حق حقه .. وحقى عليك هو أن تنتظر حتى يأتى الليل .. خفِّض الإضاءة .. انتظر حتى يسود السكون ويخرس ذلك البائع على ناصية الشارع والذى لا يعرف ما يبيعه إلا الله ، وينتهى ذلك الأخ الذى يحكى نكتة بذيئة لصاحبه تحت نافذتك من نكتته .. انتظر حتى يفرغ من (ههههع) ومن السعال فالبصاق .. انتظر حتى يسكت هذا كله وابدأ القراءة ..

قصتنا اليوم تدور حول ناد للغيلان .. حكيتها من قبل ؟ بصراحة لا أعتقد هذا .. لابد أنكم تخلطون بينها وقصة أخرى ..

متى وقعت هذه القصة ؟ دعونى أراجع أوراقى .. يبدو أنها وقعت عام 1974 .. السبعينات كانت أكثر فترات حياتى صخبًا وأكثرها ازدحامًا بالأحداث ..

هناك قصص لا بأس بها وقعت بعد ذلك .. هناك قصة وقعت أمس بالذات .. لكنى أجد كثافة غير عادية فى أحداث السبعينات بالذات ..

بالمناسبة أنا لا أحكى بترتيب منتظم .. لا يجب أن تكون هذه القصة قد وقعت بعد (بيت الأشباح) .. ربما وقعت قبلها ..

المهم أن هناك ناديًا للغيلان ، وإننى موجود ، وإنكم هنا .. ترمقوننى بتلك العيون البريئة المتسعة .. بعض العيون شاخ أو أحاطت به التجاعيد من فرط الهموم .. هذا طبيعى .. إن ثلاثة عشر عامًا من السرد ليست بالأمر الهين ..

والآن نبدأ قصة نادى الغيـ...

لحظة حتى ينتهى هذا الأخ الذى يحكى نكتة بذيئة تحت شرفتى من نكتته .. وينتهى من الـ (هههععع) ثم السعال من صدر يفعمه التبغ .. ثم البصقة التى لا مفر منها على الرصيف .. فقط أرجو ألا تركز الفتيات المهذبات مع النكتة ؛ لأن ما يقوله شنيع فعلاً ..

عندما ينتهى هذا كله سأبدأ السرد ..

ههههع ..!

كح .. كح !

تفوه!

لقد انتهى ! هذا خبر طيب ..

فلنبدأ الآن ..

غول : (غاله) الشىء من باب قال و(اغتاله) إذا أخذه من حيث لم يدر . (الغُول) بالضم من السعالى والجمع (أغوال) و(غيلان). وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه هو (غول) . والغضب غول الحلم لإنه يغتاله ويذهب به .

مختار الصحاح 1926

غول : الشخص الذى يجد سعادته فيما هو مثير للاشمئزاز أو مرضى أو كريه ـ سارق قبور ـ روح شريرة أو شيطان فى الفولكلور الإسلامى قيل إنه يسرق القبور ويلتهم الجثث. (من لفظة غيلة العربية : أى ينقض على الشىء فجأة)

قاموس التراث الأمريكى

الطبعة الثالثة

الجزء الأول

جمعية الباحثين عن الحقيقة

وضعت قبضتى تحت ذقنى وعدت أسأله :

ـ « ماذا يدور فى هذه الجلسات ؟ هل تستحضرون أرواحًا أو ترقصون عراة حول نجمة خماسية على الأرض؟ ربما تستعملون دماء الأطفال الرضع كذلك ؟ »

نظر لى فى غيظ ، ثم قال :

ـ « بالطبع .. نفعل هذا وأكثر .. ما تتكلم عنه هو لعب أطفال .. »

1

منعًا للخلط أو تداخل الأزمنة والأحداث ، دعونا نبدأ بأن نثب وثبة زمنية ومكانية واسعة إلى لندن .. بالتحديد فى الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر .. فمتى انتهينا من هذه الوثبة ، أعدكم بأن نبقى هنا والآن .. فى مصر وفى زمننا الحاضر هذا ..

نحن الآن فى العام 1891 .. مكتب فى (فليت ستريت) يطل على حدائق (كوفنت) ..

على الباب لافتة تقول : (كلايد آند سبنسر ـ خبيران قانونيان) ..

على قدر علمى لم يكن البريطانيون فى زمن الإمبراطورية هذا يمارسون أى نشاط سوى التدخين وتناول العشاء ، ولا يذهبون لأى مكان إلا النادى ومكتب المحاماة ..

وفى هذه القاعة التى ازدانت جدرانها الأربعة بالمكتبات المليئة بالمجلدات القانونية ، وأمام المكتب العملاق الفارع ، يجلس ورثة اللورد (إيمرى) الأربعة .. ابنا شقيقته وربيبه وابنة أخيه ..

خلف المكتب يجلس المستر (حيمس كلايد) المحامى المسن أشيب الشعر والسيجار فى يده ، يرمق هذه المجموعة الغريبة من البشر .. مجموعة مصدر غرابتها هى أن أفرادها طبيعيون جدًا ..

كان يعرف غرابة أطوار عميله اللورد (إيمرى) ، ويعرف أن الرجل كان مخيفًا بما يكفى كى يقطع كل من يعرفه علاقته به .. إنه (الخروف الأسود) فى الأسرة كما يقول البريطانيون ..

اللورد (إيمرى) جاب العالم لكنه اختار أماكن عجيبة لسياحته .. لقد زار (ترانسلفانيا) وزار (سيلم) فى الولايات المتحدة ، وعرف طباع أهل (نيو إنجلند) الشاذة التى أحسن وصفها (لافكرافت) فيما بعد ، كما أنه زار مصر وعرف الكثير عن الفراعنة ، قبل أن يزور التبت ليرى المعابد البوذية ..

كان لورد (إيمرى) واسع الثراء يعيش وحده فى بيت ريفى منعزل ، وقد كثرت الأقاويل حول هذا البيت ، حتى أن الفلاحين كانوا يرسمون الصليب عندما يمرون قربه .. وكانت زيارات المستر (حيمس كلايد) لبيت عميله همًا مقيمًا ؛ لذا كان يفضل المراسلة بالخطابات مع هذا الرجل ..

برغم هذا لم ير شيئًا غريبًا من اللورد .. قد يكون مجرد عجوز مولع بالعزلة لا أكثر ..

على كل حال هو قد مات ..

والآن جاء الورثة لسماع وصيته التى تركها لمحاميه .. الوصية التى تتكون من ورقة واحدة معها أربعة خطابات مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر وخاتم اللورد ..

قال المحامى وهو يمسك الورقة :

ـ « الآن وقد جئتم جميعًا يمكننا أن نطالع الوصية .. »

مد شريكه (هنرى سبنسر) الذى وقف خلفه عنقه ليقرأ معه .. بينما تعالى صوت المحامى الجهير :

ـ « أنتم أقاربى الوحيدون على قدر علمى ، ولست فخورًا بكم ولستم فخورين بى .. لو شئتم الدقة لقلنا إننى أمقتكم جميعًا .. كلكم كنتم تتملصون منى ، وتحاولون نفى أية علاقة لكم بالثرى الريفى المجنون الذى هو أنا .. »

هب الفتى (ويليام إيمرى) ابن أخى اللورد مغضبًا ، وتناول قبعته هاتفًا :

ـ « هذا غير مقبول ! لم أقطع كل هذه المسافة لأهان ! »

قال المحامى فى برود :

ـ « الرجل قد مات يا بنى ولم يعد مسئولاً عن أفعاله .. ليس بوسعه الاعتذار وليس بوسعك طلبه .. أرجو أن تجلس وتمسك أعصابك .. »

جلس الفتى فى تردد .. من ثم عاد صوت المحامى يتردد :

ـ « مشكلة الموتى هى أنهم غير قادرين على استكمال مشاريعهم الكبرى ؛ لذا هم بحاجة إلى الأحياء .. ولولا هذه الحقيقة لكنت

أسعد الناس بأن أوصى بكل مليم أملكه للكلاب فى ضيعتى .. فهى احتفظت بإخلاصها لى إلى النهاية .. »

« سوف يتم تقسيم الإرث بينكم على الأسس التى يعرفها مستر (كلايد) ولكن هناك شرطًا مهمًا .. سوف يأخذ كل منكم خطابًا يحمل اسمه ، ولسوف يكون عليه أن يعى ما به حرفيًا ، ثم يحرق الخطاب وينفذ ما جاء به .. مستر (كلايد) لا يعرف محتوى الخطاب لذا لن يستطيع التيقن من تنفيذ أوامرى ، على أننى أعدكم بأن أنتقم من أى واحد فيكم لا ينفذها .. أنتم تعرفون أننى أعنى ما أقول وإننى بحق أستحق السمعة السيئة التى أحاطت بى .. لهذا ستكون غضبتى عاتية لا تبقى ولا تذر ، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بى .. هذا هو كل شىء .. »

« قريبكم غير الفخور بكم
لورد ج. و. إيمرى »

لما انتهى المحامى من تلاوة الوصية ، هب الفتى (ويليام) من جديد صائحًا :

ـ « هذا العجوز استحق كل حرف قيل عنه .. هذه كلمات لا يكتبها إلا مجنون .. »

أضاف أخوه :

ـ « هذه العبارة الأخيرة بالذات (لهذا ستكون غضبتى عاتية لا تبقى ولا تذر ، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بى) تعكس تأثره بالتهديدات التى كان ينثرها الكهنة المصريون فى المقابر الفرعونية .. »

من جديد قال المحامى فى برود :

ـ « ليس من شأنى أن أحكم على أخلاقه أو عقله .. إنه الآن فى يد من هو أحكم وأكثر رحمة بما لا يُقاس .. مهمتى محددة هى أن أتلو عليكم الوصية ثم أسلم كلاً منكم خطابه الخاص .. »

ثم مد يده وتناول أول خطاب ، وقال :

ـ « مستر (ويليام إيمرى) .. لقد ترك لك بيته الريفى .. هذا الخطاب لك .. » .

قال الفتى فى نفاد صبر :

ـ « سوف أبيع هذا البيت فى أول فرصة .. »

لم يعلق المحامى وتناول الخطاب الثانى :

ـ « آنسة (هوجزورث) .. لقد ترك لك خالك مبلغًا من المال فى المصرف ، سوف أخبرك بتفاصيله على انفراد .. »

ثم ناول الخطابين الآخرين لصاحبيهما مع بيان ما ورثاه ..

ثم أضاف معلنًا إنهاء الجلسة :

ـ « هذا هو كل شىء .. ولا أريد أن ألمَح لشىء ، لكنى لو كنت مكانكم لنفذت ما يطلبه الخطاب بالتفصيل ، لأنى أعرف اللورد (إيمرى) ، وأعرف أنه اتخذ كل ما يلزم كى يتأكد من أن وصيته ستنفذ .. »

هكذا غادر الورثة المكتب ، وكل منهم يتحرق شوقًا لقراءة خطابه على انفراد ..

* * *

كان الصحفى الشاب (جوزيف إيمرى) فى غرفة المكتب بشقته يتهيأ لتدخين بعض الأفيون (الذى لم يكن محرمًا فى ذلك الوقت) عندما جاءه (ويليام) أخوه مندفعًا ممتقع الوجه ..

لما رآه جالسًا قال له فى عصبية :

ـ « أنت هنا تدخن الأفيون بينما أنا أرتجف رعبًا ! »

قال (جوزيف) وهو يطلق سحابة كثيفة :

ـ « ومن قال العكس ؟ لماذا تحسبنى أدخن الأفيون ؟ أريد أن أغيب عن الوعى بعض الوقت حتى أنسى .. »

قال (ويليام) فى حماسة :

- « هل لى أن أفترض أنك وجدت فى خطابك نفس الشىء ؟ »

- « نعم .. أعرف من وجهك أننا قرأنا الشىء ذاته.. »

- « وهل تنوى تنفيذ هذا الهراء ؟ »

- « بالطبع لا .. »

ثم نظر حوله كأن هناك من يتنصت عليه ، وأردف :

- « اسمع .. لا شىء يربط حصولنا على الإرث بتنفيذ هذه الوصية .. سوف ننال المال فى كل الظروف .. يمكننا أن نتجاهل ما يطلبه رجل مجنون .. »

هكذا اتفقا ..

* * *

لهذا ستكون غضبتى عاتية لا تبقى ولا تذر ، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بى ..

* * *

تقول الوثائق وتلك الصفحة من الـ (هيرالد) التى وجدتها إن (ويليام) وجد ميتًا جوار النهر .. ضباب لندن اللعين الأزرق جعل العثور على الجثة عصيًا ، لكنهم وجدوه شاخص العينين بلا أثر لأى جرح فى جسده .. الواقع أنه لم يوجد أى شىء يدل على الوفاة

فيما عدا الوجه .. الوجه الذى يقول بوضوح تام إنه رأى شيئًا شنيعًا .. لكن أى شىء شنيع يمكن أن يؤدى لتوقف قلب شاب قوى ملىء بالفتوة ؟

لابد أن (جوزيف) أخاه مر بظروف مماثلة ..على كل حال قد وجدوه ميتًا فى شقته ، وأمامه النارجيلة التركية إياها .. كان شاخص العينين وقد تقلص وجهه فى صرخة رعب .. الطبيب قال إن الأرجح هو أن جرعة عالية من الأفيون قتلته ..

لا تتوقف القصة عند هذا الحد ، فمن المؤكد أن الفتاة (هيلين هوجزورث) التى كان اللورد خالها ، والتى كانت تصر على عدم ذكر اسم (إيمرى) فى نهاية اسمها ، كانت تحمل عاطفة ما متبادلة مع ربيب اللورد ، وهو شاب يدعى (آرثر) ..

وقد قابلت (آرثر) بدورها ، وسألته فى ذعر :

- « هل خطابك يحوى أشياء مماثلة لما فى خطابى ؟ »

هز رأسه .. من الغريب أن كل واحد كان يدرك يقينًا أن أربعة الخطابات متماثلة ..

- « وماذا تنوى عمله ؟ »

قال وهو يحكُّ شعره المجعَّد:

ـ « الحقيقة أننى أعرف اللورد أكثر من أى واحد فيكم ، وأعرف أن ما فى الخطابات صحيح على الأرجح .. لكن هذا لا يعنى أن أتورط فى الأمر .. سوف أتجاهل الأمر وأحصل على حقى فى الإرث .. »

ـ « وكلامه عن الانتقام ؟ لقد مات (ويليام) و(جوزيف) ابنا خالى .. لا أحد يعرف كيف .. »

قال (آرثر) ضاحكًا :

ـ « لو كان بوسع خالك أن يؤذى لما طلب عوننا .. تذكرى كلماته (مشكلة الموتى هى أنهم غير قادرين على استكمال مشاريعهم الكبرى ؛ لذا هم بحاجة إلى الأحياء) .. هذا يبرئ ساحته تمامًا .. »

قالت وهى تريح رأسها على كتفه :

ـ « أتمنى أن أصدقك .. »

* * *

لهذا ستكون غضبتى عاتية لا تبقى ولا تذر ، ولسوف يحل الخراب بمن يتلاعب بى ..

* * *

وبالفعل لم تصدقه . لم تصدقه قط ..

(آرثر) لم يصحُ من نومه عند الظهر كعادته ..

اضطر وصيفه إلى دخول الحجرة ، فوجده على الفراش ـ ميتًا طبعًا ـ يحدق شاخص البصر فى السقف .. نظرة رعب عاتية فى عينيه ، وهى النظرة التى وصفها د. (دوجلاس) بأنها ذات النظرة التى رآها على وجهى الشقيقين (ويليام) و(جوزيف) ..

هنا تتحرك الأحداث بسرعة ..

لقد رفضت (هيلين) نصيبها فى ميراث خالها ، وكانت مذعورة تبدو أقرب إلى الجنون .. لا أحد يلومها بالطبع .. ولم يجد المحامى سبيلاً للخلاص من ورطة موت الورثة خلال ثلاثة أيام إلا أن يوقف هذه الثروة على فلاحى الضيعة ..

وكلابها .. ..

أما (هيلين) فقد حزمت حاجياتها وركبت أول سفينة مغادرة البلاد إلى إحدى مستعمرات بريطانيا ..

آخر ما قيل عنها فى الوثائق هو إنها ذهبت إلى مصر ..

* * *

2

للمرة الثالثة هذا الأسبوع يدق جرس الهاتف ..

من الضرورى أن أجرى دراسة لمعرفة سبب تحول بيتى إلى سنترال (العباسية) فجأة ..

كنت منحرف المزاج هذا الأسبوع ، فقد توفى د. (محمد شاهين) فى بدايته .. نوبة قلبية كالعادة ، وبرغم أن هذا الرجل أتعبنى بسذاجته فقد احتل مساحة لا بأس بها من حياتى وذكرياتى ، دعك من أنه كان طيب القلب فعلاً .. لا يملك ذرة واحدة من الخبث والادعاء ، وهى صفة نادرة بحق ..

قرب نهاية الأسبوع تشاجرت مع اكتشاف (محمد شاهين) .. د. (كاميليا) .. من الغريب أننا مجرد صديقين يحترمان بعضهما ، لكننا نتشاجر بإفراط كأننا متزوجان منذ عشرين عامًا .. كانت قد قدمت لى مجلدًا كتبته هى يشبه الكومود فى حجمه ووزنه ومحتوياته ، وطلبت منى أن أقرأه .. طبعًا لم أقرأ حرفًا لأن (الفلسفة المادية وإرهاصاتها لدى كيركجارد) آخر موضوع يمكن أن يثير اهتمامى .. بعد أسبوع عرفت أننى لم أقرأ حرفًا فاتهمتنى بالسطحية وادعاء الثقافة والتفاهة .. هكذا تشاجرنا وأعتقد أن علاقتنا قد فصمت للأبد لمدة أسبوع كما يحدث فى كل مرة ..

لا أستطيع ولا أريد الخلاص من (كاميليا) ، لكننى كذلك لا أريد أن أقترب منها بأكثر من مكالمة هاتفية أسبوعية ..

ساخطًا اتجهت إلى الهاتف ورفعت السماعة ، وأنا أتساءل عن ذلك السخيف الذى يعتقد أنه يقدم لى هدية لمجرد أنه هو ..

الحقيقة أنه كان هدية فعلاً ..

كان هذا هو صديقى العزيز القديم د. (سامى) .. تلك الليلة فى الإسكندرية وحلقة الرعب الأولى .. وذلك الحفل الرهيب الملىء بغرباء الأطوار ..

كان منتعشًا مرحًا كالمصيبة كما هى العادة ، وراح يسألنى عن كل شىء فى حياتى .. أين ذهب الجميع ؟ هل من كان حيًا ما زال حيًا ؟ إلخ .. طبعًا من الواضح أن أحدًا لم يخطره بوفاة (محمد شاهين) صديقنا المشترك ، فلن أكون الأول وأتلقى اللوم على عدم إبلاغه .. كان هناك نعى فى الجريدة ، لكن هل تتوقع أن يهتم د. (سامى) المتفائل بصفحة الوفيات ؟

ثم :

ـ « ألا تنوى أن تمر علينا فى الإسكندرية ؟ العمر يمضى سريعًا ولم تعد ثمة لقاءات كثيرة .. »

قلت له فى حرج :

ـ « أرجو ألا تدعونى لحفل من الطراز الذى يعجُ بالفراعنة العائدين .. »

ضحك كثيرًا .. لسبب ما يجد هذا الرجل أن كل حرف أقوله دعابة طريفة .. وقال :

ـ « لا تقلق .. أمسية هادئة وعشاء من يد المدام .. لن يزيد الأمر على شكة إبرة .. صدقنى .. »

حاولت التملُص لكنه كان مصرًا كالعادة .. وراح يحبط كل عذر خائب اختلقته ..

ـ « لاحظ أننى تخليت عن تلك الفيلا النحس .. حاليًا أقيم فى بناية عامرة بالسكان فى .. (وذكر العنوان الجديد) .. »

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة ..

إسكندرية الشتاء مرة أخرى .. (عادل) و(سهام) و(هويدا) .. د. (سامى) .. البنسيون .. أشعر أن غبار الزمن يتطاير ليعيد لى (رفعت) القديم .. (رفعت) الشاب الذى كان أكثر كآبة وتوجسًا منى الآن ..

مزية شبابى هى أنه لا قيمة له .. يحنُ كل الناس لشبابهم باعتبارهم كانوا يتسلقون جبال الإنديز ويمرحون مع الحسناوات ويركبون سيارات الفيرارى فى ساحة (إنديانا بوليس) .. بالنسبة لى لا يمثل

الشباب أى شىء ، لأنى ببساطة لم أفعل أى شىء فى شبابى سوى مصادقة الأشباح والمسوخ .. ولأسباب عدة صرت أعتقد أن هذه الكائنات تفهمنى أكثر من البشر .. هكذا لست نادمًا أو حزينًا على شباب ولى .. يجب أن تمتلك الشىء كى تشعر بفقده ..

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة ..

وهكذا استعددت للقاء كما يجب .. حلاقة رأسى .. أعنى حلاقة ما تبقى منه .. البذلة الكحلية التى لم تكف لحظة عن أن تجعلنى فاتنًا .. ربطة العنق الجديدة التى ابتعتها من تنزانيا .. لم أعرف أن تنزانيا تبيع ربطات العنق لكنى فعلت ذلك ..

هكذا اتفقنا على مساء الخميس كالعادة ..

وهكذا انطلقت بسيارتى أنهب الطرقات نهبًا وأطويها طيًا ـ كما يقول مدرس اللغة العربية ـ لألحق بموعدى مع صديق الماضى العزيز ..

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

قال إنه يسكن بناية عامرة بالسكان ، وقد صدق فعلًا ..

كانت شقته فى الطابق السادس من بناية مزدحمة بالفعل .. مصعد .. مدخل تحيط به نباتات الزينة كالعادة ، ثم تدق الجرس فتفتح لك الباب خادمة أنيقة حسنة المظهر .. تدخل لتكتشف أن الزوجة فعلت هنا بالضبط ما كانت تفعله فى الفيلا .. كل شىء أبيض .. الأثاث أسود .. حرص على الدقة اللونية يبلغ درجة الوسواس .. هنا عالم من الأبيض والأسود يشعرك بأنك غريب .. لو أن أحدنا نزف دمه على الأرض واتضح إنه أحمر ، لاتهم بانعدام الحس الفنى ..

نباتات الزينة فى كل مكان .. نباتات عفية حسنة التغذية فخور بنفسها .. جربت ذات مرة تربية نبات ظل نسيت اسمه ، وقد نجحت فى أن أبقيه حيًا ثلاث ساعات .. تحول إلى جثة عفنة رخوة تثير الرعب فى القلوب .. لهذا أقدِّر من ينجحون فى إبقاء هذه الكائنات المزعجة حية ..

الجديد هو تلك اللوحات المتناثرة فى كل ركن .. لوحات عملاقة للفنانين التأثيريين .. (رينوار) و(ديجا) .. و(مانيه) و(مونيه) .. وقد حرصت الزوجة على وضع الإضاءة جوار اللوحة بحيث تستعيد ظروف الإضاءة التى استعملها الفنان بالضبط .. هكذا تشعر أن اللوحة حية ، وهى حيلة جربتها أنا كثيرًا من قبل .. جرب أن تضع شمعة أسفل لوحة (راقصة الباليه) الشهيرة لـ (ديجا) وراقب النتيجة .. سوف تحتار .. أ .. سوف تجعل الإضاءة الراقصة تبدو حية على المسرح لأن إضاءة اللوحة آتية من أسفل ..

بين اللوحات صورة فوتوغرافية عملاقة لم أرها من قبل تمثل د. (سامى) وهو يدخن الغليون .. الحق إنها كانت جميلة التقطها خبير ، وقد استخدم الظلال ببراعة وموهبة ، مما يختلف عن (إضاءة الأفراح) التى نراها فى الصور الفوتوغرافية عادة .. دخان التبغ نفسه صار جزءًا مهمًا من مفردات الصورة ..

هناك سماعات عملاقة فى كل مكان .. سماعات ستريو تنبعث منها الموسيقا الكلاسية بلا انقطاع ، وقد قال لى (سامى) فيما بعد إن موسيقا (باخ) هى المناسبة لتلك اللوحات التأثيرية .. الحوشيون على غرار (جوجان) و(فان جوخ) تناسبهم نغمات (فاجنر) أكثر .. ما شاء الله .. لم أعرف قط أن هناك موسيقا تليق أو لا تليق بلوحات معينة .. فإما أننى أجهل من دابة أو هو يبالغ نوعًا ..

هناك جهاز لتعطير الجو يطلق زخة كل عشر دقائق .. هذه هى مزية عدم الإنجاب الوحيدة .. لو كان هناك أطفال لما بقى حجر فوق حجر فى هذا البيت ..

الشرفة واسعة باردة .. يخيم عليها جو المساء ، وفيها مائدة وبعض المقاعد .. جو من الظلام يريح النفس حقًا ..

هكذا جلسنا فى الشرفة وأنا أتساءل : أين العشاء ومتى ؟

بعد قليل بدأت أشعر أن البرد أكثر مما يحتمل .. هذا إفراط فى الرومانسية سوف يجلب لى المصائب ..

جاءت الزوجة ـ مدام (ثريا) ـ حاملة كئوس العصير ، ورحبت بى بحرارة .. وقالت لى إن الأستاذ (عزام) المحامى آت حالا .. طبعًا أنا لا أعرف من هو الأستاذ (عزام) المحامى ولا أشتهى مقابلته ، لكن علىّ أن أتظاهر بأن هذا أروع خبر سمعته فى حياتى ..

ـ « إذن هو آت ؟ رائع رائع ! أشتاق مقابلة هذا الوغد العجوز ! »

قال (سامى) فى حيرة :

ـ « عجوز ؟ إنه فى الأربعين من عمره .. »

ـ « عجوز فى عقله .. فى حكمته .. هذا ما أعنيه.. »

راحا يسألاننى عن كل شىء .. حتى توقعت أن يسألانى عن تطعيم الحصبة الذى تلقيته .. ثم قالت الزوجة ضاحكة :

ـ « هل حقًا ما زلت تهتم بتلك الأمور المخيفة كعهدنا بك ؟ »

ـ « الأمور المخيفة هى التى تهتم بى .. »

قال د. (سامى) وهو يشعل غليونًا :

ـ « هناك قصة غريبة بعض الشىء .. لا أعرف إن كنت تجد فيها شيئًا ذا قيمة ، لكن لا بأس من طلب رأيك .. »

ثم مد يده فى جيب الروب ، وبحث عن شىء .. ثم أخرج مظروفًا أسود أنيق الشكل وناوله لى .. ونفث سحابة دخان بمعنى (ما رأيك ؟) ..

فى توجُس تأملت المظروف فلم أر أى شىء .. أضاءت مدام (ثريا) نورًا خافتا لأتمكن من القراءة :

« جمعية الباحثين عن الحقيقة .. »

فتحت المظروف فوجدت بطاقة أنيقة فعلاً ، كتب عليها :

« يتشرف المحاسب (عدنان شوقى) بدعوتكم لحضور حفل التعارف الخاص بجمعية الباحثين عن الحقيقة ، وهى جمعية غير حكومية لا تهدف للربح ، وتضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر ، وقد اخترنا أفرادها بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة اجتماعية وثقافة عالية ، وخلفية أكاديمية مرموقة . سوف يكون السيد (عدنان شوقى) موجودًا ومستعدًا للإجابة عن أسئلتكم .. وبعد هذا تجرى انتخابات لمعرفة أعضاء الجمعية العمومية وجدول أعمال العام الحالى ، فى حالة قبولكم الانضمام للجمعية .. يُرجى تشريفنا بالحضور الثلاثاء 8 نوفمبر فى تمام الساعة الثامنة مساء .. »

فرغت من قراءة البطاقة .. ونظرت فى حيرة لـ (سامى) على حين أغلقت زوجته النور من جديد ، فعدنا نسبح فى الظلام ..

قلت فى شرود :

ـ « جمعية تضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر .. ما هذا الكلام الفارغ ؟ »

ضحك طويلاً كعادته كلما قلت شيئًا مهما كان جادًا ، وقال :

ـ « حسبتك ستقدم لى إجابة .. »

قلت فى ضيق :

ـ « لا توجد إجابة إلا لديهم .. أعتقد أنهم نصابون وأنهم سيطالبونك برسم المشاركة فى الحفل .. هكذا يجمعون عدة مئات من الجنيهات ثم لا ضير عليهم بعدها إن عرف الكل أنهم نصابون .. »

كان هذا قبل أن تظهر حيلة النصب الشهيرة الحالية : يسألك الفتى عن البلد الذى عاصمته القاهرة فتهتف فى ذكاء وانتصار : مصر .. برافو .. أنت عبقرى يا سيدى ؛ ولذا ندعوك لحفلنا الكبير يوم الثلاثاء القادم حيث تحصل على فيلا وسيارة وطائرة لأنك إنسان رائع .. فقط يجب أن تدفع عشرة جنيهات الآن لضمان الجدية ..

لم يكن النصب وقتها قد بلغ هذه الحدود ؛ لذا بدا لنا الأمر غريبًا غير معتاد ..

عدت أسأل د. (سامى) :

ـ « كيف وصلتك هذه الدعوة ؟ »

ـ « بالبريد .. من الغريب أنهم أرسلوها إلى الفيلا التى كنت أسكنها ، ولما كان مالكها يعرفنى فقد سلمنى هذا المغلف عندما قابلته.. »

ـ « لابد أنهم حصلوا على العنوان من مصدر قديم .. »

ورشفت رشفة من العصير ، وعدت أسأل :

ـ « ولماذا أنت بالذات ؟ »

ضحك وتبادل نظرة مع زوجته :

ـ « ألم تقرأ الدعوة ؟ (بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة اجتماعية وثقافة عالية ، وخلفية أكاديمية مرموقة) .. هذا أنا ! الدعوة تتكلم عنى أنا ! ثم لو لم يضموا طبيبًا نفسيًا لجمعية مهمتها (أن يفهم المرء نفسه أكثر) فمن يضمُّون ؟ »

بدا لى الكلام معقولاً ، لكن ذلك الموظف الذى لا يهدأ ولا يرتشى فى ضميرى راح يكرر ويكرر : هناك شىء ما خطأ .. صدقنى !

قلت له أن يخرس .. ليس الوقت وقت شكوك .. وإنما هو وقت العشاء ..

* * *

3

اللقاء كان فى العجمى ..

هناك فيلا فاخرة تقع على أطراف الضاحية ، يمكن من موضعها أن ترى البحر وتسمع أصوات الموج المتلاطم .. فى الظلام يتحول الموج إلى وحوش سود تتصارع فى جشع أيها يفتك بك ..

هناك أوقف د. (سامى) سيارته وترجل ونزلت معه ..

ثمة ست سيارات واقفة .. ليس العدد كبيرًا إلى هذا الحد ، لكن من الوارد أن بعض من جاءوا لا يملكون سيارات ..

كنت أنا مع د. (سامى) لأنه طلب منى بإلحاح أن أكون معه ..

الثلاثاء 8 نوفمبر فى تمام الساعة الثامنة مساء .. لو حسبت أن د. (سامى) يمكن أن يتأخر دقيقة أو يبكر عن موعده دقيقة فأنت لا تعرفه على الإطلاق .. هذا الرجل هو بالضبط كل ما ليس أنا .. ليست مواعيدى هى الأسوأ لكنها بالتأكيد ليست تلك المواعيد المبرمجة بالكمبيوتر التى يحافظ عليها .. هذا يجعل الأمر غير آدمى كأنك تتعامل مع حاسب آلى ..

عدت أكرر ، وأنا أرتجف من البرد برغم أننى ألبس البذلة الكحلية وأبدو فاتنًا :

ـ « أنا لم أتلق أية دعوة .. لا أحد يرحب بى .. »

قال ضاحكًا وهو يغلق أبواب السيارة :

ـ « كف عن عقدة الاضطهاد هذه .. هم يتعاملون مع سكان الإسكندرية فقط ولم يعرفوا بك .. لكن إذا كانوا يبحثون عن شخص ذى مكانة اجتماعية وثقافة عالية ، وخلفية أكاديمية مرموقة ، من أجل أن يفهموا أنفسهم أكثر ، فهم بالتأكيد سيرحبون بك .. أنت أشهر من نار على علم ولسوف تجد عشرين من هؤلاء يبرزون ليجذبوك إلى الداخل .. »

دق جرس الباب ..

ظهر لنا وجه رجل بارد متصلب الملامح ، وفى تهذيب وقح ـ لو كان هناك شىء كهذا ـ قال :

ـ « الدعوة لو سمحت .. »

أبرز له د. (سامى) دعوته فتفحصها فى عناية .. خطر لى أنهم أغبياء لأن الدعوة لا تحتوى صورة .. ثم إن الرجل نظر لى متسائلاً :

ـ « والأستاذ ؟ »

صاح د. (سامى) فى حماسة :

ـ « هذا هو د. (رفعت إسماعيل) أستاذ جامعى وخبير فى عوالم الميتافيزيقا .. فقط قل لمن فى الداخل إنه معى ولسوف يلومونك على إبقائه فى الخارج .. »

نظر لى الرجل فى شكٍ كأنه يتفحص خروفًا لعيد الأضحى ، ثم قال :

ـ « لحظة .. »

وأغلق الباب ووقفنا فى عصبية ننتظر ..

دقائق عاد بعدها ليقول فى تهذيب :

ـ « تفضل بالدخول يا دكتور .. »

قالها لـ د. (سامى) أما أنا فنظر لى وهز رأسه بما معناه (أنت لا) ..

كان الموقف سخيفًا محرجًا .. خاصة بعد (ولسوف تجد عشرين من هؤلاء يبرزون ليجذبوك إلى الداخل) .. واضح أننى لست أشهر من نار على علم هنا ..

هنا قال د. (سامى) فى عصبية وهو يتأبط ذراعى :

ـ « كان علىَّ أن أفهم هذا .. لكن ليكن واضحًا أننى لا أقبل الانضمام لجمعية ترفض دخول صديقى .. »

سرنى غضبه ، لكنى وددت لو يتصرف بطريقة عملية .. أنا لم أتلق دعوة فليس لى أن أغضب من عدم السماح لى بالدخول .. هذا تصرف أقرب إلى الطفولة .. دعك من أننى زاهد كل الزهد فى حضور اجتماع لجمعية (تبحث عن الحقيقة) .. منذ فجر التاريخ لا يعرف الإنسان طريقة للبحث عن الحقيقة إلا الطريقة السماوية وهى الدين ، أو الطريقة الأرضية وهى الفلسفة .. لا يبدو أن هذا اجتماع دينى ، كما لا يبدو لى المحاسب (عدنان شوقى) فيلسوفًا متعمقًا .. معنى هذا أن ما يقدمونه بالداخل كلام فارغ ، ولعله من حسن طالعى ألا يُسمح لى بالدخول ..

قلت لـ د. (سامى) وأنا أتراجع :

ـ « هذا عدل .. صدقنى .. يجب أن تدخل وتفهم .. أما أنا فسأنتظر فى السيارة .. سأدير الكاسيت وأنام .. »

قذف لى المفاتيح وهو غارق فى التفكير ..

ثم إنه دخل من الباب ، ونظر لى هذا البواب أو الحاجب أو الخادم نظرة تحد ثم أغلق الباب فى وجهى ..

عدت إلى السيارة حيث الدفء ، ورحت أفتش فى تابلوه السيارة حيث الشرائط عن شىء أسمعه غير (باخ) و(هاندل) .. لا يوجد .. هكذا بحثت عن إذاعة أم كلثوم ورحت أصغى لها مغمض العينين .. ولابد أننى نمت بعمق ..

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

بعد ساعتين ـ كما عرفت فيما بعد ـ عاد لى د. (سامى) وارتمى فى العربة ..

قال وهو يمسك برأسه :

ـ « لابد من علاج لهذا الصداع .. رأسى يوشك على الانفجار .. »

قلت وأنا أتثاءب كفرس النهر :

ـ « الصداع أفضل من التجمد بردًا على كل حال .. لقد كانت فكرة حمقاء ندمت عليها بعد نصف ساعة .. »

ونظرت إلى الخلف لأجد عددًا من الناس يركبون سياراتهم ويديرون المحركات فسألته :

ـ « ماذا حدث بالداخل ؟ »

قال بلهجة عملية وهو يدير المحرك بدوره :

ـ « لا شىء .. هناك كلام كثير عن اكتشاف مواهبنا والطاقة الذاتية .. إلخ .. كل واحد فينا يحوى بركانًا من القدرات يجب أن نفجره .. الكثير من هذا الـ Harangue .. »

قال آخر كلمة (بلاغة خطابية) بالإنجليزية كعادته .. لابد من كلمة إنجليزية ما فى كل جملة .. ثم أضاف :

ـ « قال لنا الرجل ـ أعنى (عدنان شوقى) ـ إننا جميعًا أعضاء فى الجمعية .. هناك اجتماع كل ثلاثاء ، وهو يعتقد أننا سنقبل .. وسنتحمس .. من لم يرد فهو حر ومن أراد فمرحبًا به .. كان يعرف أسماءنا ويداعبنا بلا انقطاع .. »

ـ « إذن هذه كانت أقرب إلى جلسات العلاج الجماعي .. »

ـ « لم تكن لكن من الواضح أنها ستكون كذلك .. هناك رجال ونساء .. ليس الكل أثرياء أو أكاديميين .. البعض من الطبقات الوسطى أو أقل .. والبعض لم يحصل إلا على الثانوية العامة .. هذا جعلنى أتساءل عن المعايير التى جعلته يختارنا .. ليس المقياس هو الشهرة الأكاديمية ولا الثقافة إذن .. »

ـ « ما تفسيره لهذه النقطة ؟ »

ـ « قال إنهم ليسوا أغبياء .. وهم يستخدمون مقاييس خاصة معقدة كالتى يستعملونها فى الغرب ، وبالتالى هو يعرف أن كل واحد من الموجودين متميز .. »

كان المحرك قد سخن بما يكفى لذا أدار السيارة عائدًا .. وقال لى :

ـ « لقد أعد الرجل ما يشبه قاعة اجتماعات واسعة .. مائدة طويلة ومقاعد .. وقد انتخب مجلس إدارة يتكون من عشرة أفراد .. طبعًا لابد أنك خمنت أننى عضو فيه ! »

نظرت له فى دهشة :

ـ « قلت إن الأمر كله يدعو للسخرية ! »

ـ « وغيرت رأيى .. إن لهذا الرجل سحرًا غريبًا وأعتقد أنه يعرف ما يتكلم عنه .. ثم لا تطالبنى أنا الطبيب النفسى بألا أحضر تجربة كهذه .. هذا يعنى عدم كفاءة .. »

كنت أفكر فى عمق .. مجلس إدارة من عشرة أفراد .. إذن لا يمكن أن يقل عدد الحضور عن خمسين .. لماذا وما هى الفكرة ؟

كل هؤلاء جاءوا للبحث عن ذواتهم والحقيقة ؟

ـ « وكم يبلغ ثمن العضوية فى هذا الصرح العلمى غير المخصص للكسب ؟ ألف جنيه سنويًا ؟ أو لعل العضوية مجانية لكنهم يقبلون بعض الهبات ..؟ »

قال وهو يراقب الطريق المظلم :

ـ « ولا مليم ! لم يطلبوا منا سوى الحضور والاندماج مع الآخرين .. هذه علامة صحية كما ترى .. »

ـ « ربما يبدءون طلب الهبات بعد أن يصير المكان ضروريًا لكم كناد .. أنت تعرف أن الرجال يحبون أى مكان يفرون فيه من زوجاتهم ، خاصة إذا قابلوا فيه فارّين آخرين .. »

قال ضاحكًا :

ـ « لا .. لا .. تعرف أننى لست من هذا الطراز .. دعك من أن رأيك ليس محايدًا .. لا تنكر هذا .. أنت تشعر بشعور الفتاة التى رآها عريس ولم ترق له .. هكذا كلما جاءت سيرته فى الكلام قالت إنه فاشل ومنحط وغير جدير بأن تفكر فيه أية فتاة .. »

قلت صادقًا :

ـ « طُردت من أماكن كثيرة فى حياتى .. صدقنى لم أعد أبالى بهذا .. »

ـ « أشعر أحيانًا بأنك ما زلت تبالي.. »

على كل حال سوف أفهم التفاصيل فيما بعد .. سوف أبيت عنده هذه الليلة لأن الوقت تأخر ، وسوف يشرح لى كل شىء .. لا .. لن أسأله .. أنا غير مهتم أصلاً .. لا داعى لأن أصدع رأسى بثرثرة لا تنتهى ، ومئات المصطلحات من شخص لا يكف عن التعليم لحظة .. أريد أن أسترخى قليلاً بعد كل هذا البرد ، ومقعد السيارة الذى أحال ردفى إلى حجر ..

سوف أنااااام!

* * *

4

لا تذهب (غادة) لأى مكان من دون أختها (عزة) .. هكذا تعلمت منذ زمن ..

(غادة) السمراء النحيلة المتوترة دومًا قد كونت نظريتها عن العالم منذ زمن ، وهذه النظرية تقضى بأن العالم يعجُ بالذئاب أو القتلة أو الأوغاد أو خاطفى الحقائب .. لا يمكن لفتاة وحيدة نحيلة مثلها أن تواجهه ..

من الغريب أن أى حادث مهم لم يقع لها فى حياتها .. كانت حياة أسرية منتظمة هادئة ، لكن كان من حظها أن أباها من طراز الآباء الذين تراهم فى كتب الدراسة .. شارب غليظ .. جدار من الحماية والقوة .. يعرف كل شىء ويفعل كل شىء ، والنتيجة هى أنها لا تعرف أى شىء على الإطلاق ، ولا تثق فى قدرتها على شراء كيلو من الطماطم من دون أن تُخدع ..

حتى الصف الثالث الإعدادى لم تكن تخرج إلا معه أو مع أخيها (محمد) .. بعد هذا لم تكن تخرج إلا مع (عزة) .. لابد أنها كانت تتعثر ألف مرة إذا اضطرت للخروج وحدها ..

ربما كان لعدم ثقتها بنفسها دور مهم فى جعل دراستها تتعثر .. دخلت معهد السكرتارية ، وتخرجت فيه لتطرق الأبواب بحثًا عن عمل ..

هى لم تتزوج بعد ولم تخطب ، ولا تتوقع أنها ستثق يومًا فى رجل غريب عنها .. رجل ليس أباها .. لهذا ظلت تدعو الله أن تتأخر هذه اللحظة إلى آخر وقت ممكن .. من الوارد أن تموت أو تنشب الحرب النووية قبل هذا اليوم .. لكنها كانت أضعف من أن تعلن أنها راغبة فى العنوسة .. كانت تعرف أن أباها سيطلب منها أن تتزوج ولسوف تفعل ..

* * *

من ناحية الشكل ، ليست (غادة) منفرة .. لها وجه مريح قسيم .. وعيناها الواسعتان المذعورتان دومًا تضفيان عليها طابعًا ساحرًا .. دعك من خفة حركتها .. تراها وهى تثب فوق الرصيف فتشعر بأن هذا غزال يمرح سعيدًا بحريته .. والحقيقة أنه غزال مذعور ..

اليوم هو يوم مهم فى حياة (غادة) لأن الشركة اتصلت بها ..

مدير المستخدمين ـ وهو رجل عبوس له طابع أبوى مخيف ـ اتصل بالبيت وقال لها إن عليها أن تحضر مسوّغات التعيين وست صور .. غدًا آخر موعد ..

هلل الجميع طربًا فى البيت واحتضنتها أمها ولثمتها .. لقد صارت (غادة) امرأة عاملة ..

أقيم احتفال صغير على حسابها من مصروفها .. جاتوه ومياه غازية .. امتد الحفل حتى الثامنة مساء .. ثم ..

ـ « هل لديك ست صور ؟ »

هنا فقط تذكرت أنها لا تملك إلا صورتين .. هذه هى السن التى لا تكف الفتيات فيها عن تبادل الصور ، مع كتابة كلمات مضحكة على ظهرها تعكس اللوعة وشدة الهيام كأنها تكتبها لرجل أو كأن كاتبها رجل : « حبيبتى .. غرامك جعلنى أسهر الليل مع الدموع .. اذكرينى .. » .. وكلام فارغ من هذا القبيل ..

النتيجة هى أنه لا توجد إلا صورتان فى البيت ..

ـ « وغدًا آخر يوم ! »

هكذا هرعت تلبس ثيابها بسرعة البرق وأختها معها ، وقد خيل لها أن مستقبلها قد ضاع بسبب شىء تافه كهذا .. بدأ أنفها يسيل وبدأت أمعاؤها تتقلص ..

* * *

كانت فى سن التاسعة تجرى فى شارعها باكية .. كل من يراها يسألها عن سبب بكائها ، فتقول :

ـ « جلاد كراسة طحينى ! سوف تضربنى أبلة (عطيات) غدًا ! »

الليل قد انسدل على الشارع ، والمكتبات كلها مغلقة لأنه يوم أحد .. وبطنها تتقلص .. توشك على القيء من فرط الانفعال والتوتر .. مملكتى مقابل جلاد طحينى لكراس العلوم ..

تبكى .. تركض .. تتعثر .. يسألها المارة عمن ضربها .. لم يضربنى أحد بل أبكى لأنى سأُضرب غدًا !

وفى النهاية أرسل لها الله ملاكًا فى صورة عم (محفوظ) .. العجوز الأشيب الملىء بالحكمة ينتظرها منذ خلق الكون هناك فى تلك المكتبة على الناصية .. يمد يده فى تؤدة .. يناولها الجلاد الطحينى فى تؤدة .. لقد نسيت أن تحضر مالاً .. يضحك فى وقار ويصرفها .. ادفعى لى غدًا ..

تعود لدارها .. لقد نجت !! لقد نجت!

وبرغم هذا لم تذهب للمدرسة فى الغد ! لقد أسقمها التوتر حتى صحت وحرارتها تسعة وثلاثون درجة مئوية .. وظلت ملازمة الفراش أسبوعًا ؛ لأن جسدها الواهن لم يتحمل كل هذا الانفعال ..

* * *

جلاد طحينى ! ست صور !

ليس الأمر بهذه المأساوية .. أى شخص آخر كان سيسلم الأوراق غدًا ويعد الموظف بأن يحضر الصور سريعًا ، ويقدم له

لفافة تبغ ، ثم يتكلمان عن مباراة الجمعة القادمة بين الأهلى والزمالك ، لكن أى شخص ليس (غادة) .. هذه أعمال بطولية جديرة بالأساطير الفارسية بالنسبة لها ..

تمر كالملهوفة على كل ستوديو .. يهز صاحبه كتفه فى رفق ويقول إن هذا مستحيل .. مستحيل يا صغيرة أن تحصلى على صورة فورية فى أوائل السبعينات .. بعد عشرين سنة سيكون هذا متاحًا للجميع .. ربما لو مشيت على الكورنيش لوجدت أحد هؤلاء المصورين الجوالين .. يلتقط لك صورة بكاميرا ذات منفاخ ، ويحمضها فى دلو الماء .. تأخذينها على الفور ، لكنهم يعتمدون على الشمس ، ونحن الآن فى التاسعة مساء .. لو كنت أكثر حكمة يا صغيرة لجئت منذ ثلاثة أيام ..

هذه الكلمة تجعلها تعض على شفتها السفلى حسرة .. لقد ضاع كل شىء !

جلاد طحينى ! ست صور !

تركضان فى الشارع .. (عزة) بلهاء مستعدة لتبنى قضية أى شخص على الفور ، وقد بدأ أنفها يسيل بدورها وبدت على وشك السقوط مريضة ..

يعاكسهما بعض الشباب فلا تسمعان ما يقال ولا تهتمان .. يوشك الترام على دهسهما فلا تباليان ..

الآن عزة تبكى بلا انقطاع وهما تواصلان الركض ..

فجأة تتوقف (غادة) وهى ترى الأضواء الساطعة لذلك الستوديو ..

هل كان هنا من قبل ؟ لا تذكر بالضبط ؛ لأنها من النوع الذى لا يرفع رأسه أثناء المشى أبدًا ..

(ستوديو هالة) .. هذا هو ما كتب على اللافتة ..

تنظر إلى (عزة) .. ما الذى سنخسره ؟ مجرد خيبة أمل أخرى على الأرجح .. لكن تعالى نجرب ..

* * *

5

فى فى فو فام ..

* * *

الرجل الواقف بالداخل وقور أشيب موح بالثقـة .. يرفـع عويناتـه على مقدمة رأسه ، ويلبس صديريًا أسود يبدو من تحتـه قميص شمر أكمامـه .. يقف هنـاك خلف (الكـاونتر) ويرمقهمـا فـى فضول ويضع جانبًا الجريدة التى كان يطالعها ..

قالت (غادة) فى كلمات سريعة مختلطة :

ـ « صورة .. فورية .. لابد من أن أتسلمها الليلة .. عمل .. »

لابد أنـه فهم ، لأنه رفـع حـاجبيه طويـلاً ثم نظر لسـاعته ، وقـال :

ـ « هذا صعب .. لكنه ليس عسيرًا .. »

ثم نظر إلى (عزة) الباكية ، وقال :

ـ « هذه أختك ؟ هذا واضح .. »

ثم نهض فى بطء كأنه ديناصور عجوز ، واتجه إلى غرفة جانبية عليها ستار أحمر أزاحه وأشار لـ (غادة) باسمًا ..

نهضت (غادة) متوجِّسة لتجد أنها فى غرفة صغيرة ملحقـة ، بها مرآة كبيرة ومنضدة عليها فرشـاة شعر .. رأت وجههـا فـى المرآة ممتقعًا مذعورًا منتفخ الأنف ، لكنها لم تبـال .. ولهـذا لـم تعن بأن تحرك شعرة واحدة فى رأسـها ، برغم أن الرجل وقـف على باب الستوديو منتظرًا ..

لما أدرك أنها لن تغير شيئًا ؛ أشار لها كى تدخل وتجلس على مقعد فى الستوديو الذى تفوح منه رائحة الخشب الطرى والطلاء ..

ستائر تهبط .. كشافات تضاء .. حتى تتوقع أن يصرخ مخرج ما (أكشن) ..

ثم جاء بكاميرا ضخمة غريبة المنظر وضعها أمامها .. وانحنـى خلفها ..

قال لها وهو يضبط العدسة :

ـ « أنـت أغبى شخص عرفتـه .. من النـادر أن يجمع المرء بين القبح والغباء لكنك فعلت ! »

قبح وغباء ؟

هوت الكلمات عليها كصفعة .. ماذا جرى ؟ هذا الرجل كـان مثال التهذيب منذ دقائق . فماذا حدث له ؟

تبادلت نظرة مع أختها (عزة) الواقفة جواره ، ثم قالت :

ـ « أفندم ؟ »

ـ « أنت سمعت ما قلته .. أنت تثيرين اشمئزازى فعلاً .. لن يتزوجك أحد إلا بمعجزة ! »

كل هذا وهو منهمك فى ضبط العدسة ، هنا فقدت أعصابها وصاحت :

ـ « كيف تجرؤ ؟ لابد أنك مجنون ! »

هنا سمعت صوت (كليك) المميز لالتقاط الصورة ، ثم عاد الرجل يقول :

ـ « آسف .. أنا فعلاً آسف .. أفقد أعصابى بسهولة عندما أعمل .. هذه الكاميرا لا تناسبك على كل حال.. »

وأزاح الكاميرا الضخمة جانبًا وجاء بكاميرا أخرى أصغر وأكثر أناقة ثبتها على الحامل ، ومن جديد طلب منها أن تثبت .. هذه المرة قال لها بابتسامة دافئة :

ـ « أريد أن تشرقى ! كالشمس ! »

نظرت له غير فاهمة فصاح بها فى غضب تمثيلى لطيف :

ـ « بنت ! ابتسمى !! »

برغمها تسللت ابتسامة إلى وجهها فى اللحظة التى التقط فيها الصورة..

تنهَّد وقال لها ضاحكًا وهو ينزع شيئًا من ظهر الكاميرا :

ـ « هيا .. (استرح) ! هكذا يقولون فى الجيش .. ألم تدخلى الجيش قط ؟ »

ثم ضحك ضحكته الدافئة ، وأشار لهما إلى الخارج قائلاً :

ـ « نصف ساعة لا أكثر .. »

خرجت الفتاتان لتجلسا فى المحل .. على الأقل هما تشعران باطمئنان أكثر لأنهما تريان الشارع .. هناك فرصة للهرب فى أى وقت .. ولكن الرجل يبدو ظريفًا لا يبعث القلق فى النفس ..
وقالت (غادة) وهى تجفف عرقها :

ـ « غريب الأطوار لكنه ظريف .. »

قالت (عزة) وهى تطوح ساقيها كعادة الفتيات صغيرات السن :

ـ « أنت لن تتزوجيه على كل حال .. تريدين ست صور لا أكثر .. ليكن ظريفًا أو ليكن الشيطان ذاته .. »

راحت (غادة) تتأمل الصور المعلقة على الجدران .. الصور المعتادة لأطفال يخرجون ألسنتهم .. عريس وعروس يتبادلان الشرب من كأسين .. الفتى الذى رسم فى عينيه نظرة حالمة وراح ينظر للأفق فى شفافية متظاهرًا بالرومانسية .. رجل أشيب وقور يدخن الغليون وسط الظلال ..

بعد قليل ظهر الرجل ممسكًا بمظروف كبير ، وقال لـ (غادة) وهو يتناول قلمًا :

ـ « عنوانك من فضلك ورقم الهاتف .. »

قالت فى حيرة :

ـ « لم أسمع قط عن ستوديو تصوير يأخذ عناوين زبائنه .. »

ـ « تسمعين الآن .. هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصة بفلان .. لذا نحرص على هذا النظام .. »

لم تر ضيرًا فى هذا فأملته عنوانها فى (ستانلى) .. من ثمَّ ناولها المظروف الكبير .. وقال باسمًا :

ـ « أرجو أن تروق لك.. »

لم تكن لتبالى لو كانت الصور تمثل (إسماعيل يس) .. المهم أن تكون فى يدها ست صور عندما تذهب للشركة غدًا .. لكنها فوجئت بالروعة الفنية .. لم تدرك قط أنها بهذا الجمال كأنها لوحة من لوحات الرافائليين .. الظلال موزعة بعناية .. وجهها هو النبل والرقة والشفافية ..

أما الصورة العملاقة فكانت هدية من ستوديو (هالة) .. لقد كبر لها صورة خاصة يبدو أنها التقطت أثناء انفعالها .. الغريب أنها كانت أجمل ..

قال لما رأى دهشتها :

ـ « بعض الوجوه النسائية تكون أجمل عند الغضب .. هذه أشياء نعرفها نحن .. سامحينى .. »

كانت ممتنة .. ممتنة بما يفوق الوصف .. وراحت يدها ترتجف حتى أنها أسقطت النقود أرضًا .. من الغريب أن المبلغ كان زهيدًا فعلاً ..

ـ « فقط أخبرى كل صديقاتك بأمر ستوديو (هالة) .. نحن نحاول كسب الزبون الذى أضاعه الآخرون.. »

ووقف على باب المحل يلوح لهما وهما تبتعدان ..

تبتعدان غير مصدقتين أن المشكلة انتهت ..

همست (غادة) بشىء ما لم تتبينه (عزة) ، فسألتها عما تقول .. قالت (غادة) :

ـ « عم (محفوظ) .. لابد أن اسم هذا الرجل (محفوظ) !! »

* * *

(غادة) لا تفهم شيئًا فى فن التصوير .. وقد كان عليها أن تتساءل عن الطريقة السحرية التى حمّض بها هذا الرجل الصور فى نصف ساعة ، والصورة العملاقة إياها .. على الأقل كانت ستجد الصور طرية مبتلة .. لكنها لم تكن كذلك ، وهى لم توجه أسئلة ..

ليتك سألت يا (غادة) .. لقد كان هذا هو الخطأ الأول ..

* * *

6

لا توجد سعادة فى هذا العالم .. هذا واضح ..

عندما طلبوا سكرتيرة أخطئوا استعمال الكلمات .. كان عليهم أن يطلبوا جارية ، وأن يبحثوا عنها فى سوق العبيد .. هناك تقف (غادة) مطرقة الرأس بينما النخاس يجرها من شعرها ويفتح فمها بالقوة ليرى مدير الشركة أسنانها ، ويقول فى حماسة :

ـ « هذه من بنات (الأكاسرة) .. سمراء نحيلة لا تصلح للرقص ولا الغناء ، لكنها قوية عفية لا تتعب ولا تشكو يا مولاى الأمير .. »

فيفكر مدير الشركة ويخرج زكيبة دينارات يناولها الرجل ، ويجرها بحبل إلى الشركة ..

إنها تعمل كالحمار بلا توقف .. والكل يصرخ فيها ويلومها ..

هكذا كانت تقضى نهارها فى العمل وليلها فى البكاء .. وراحت تفكر جديًا فى أنه كان من الأفضل لو لم تجد مصورًا فى تلك الليلة ..

ـ « لو لم يرق لك الحال فهناك ألف واحدة تحلم بهذه الوظيفة .. »

هى بحاجة للوظيفة ، ليس للراتب الذى تبتلعه المواصلات ، ولا لكى يراها العرسان .. بل كانت فى حاجة إلى أن تشعر أن

لها كيانًا ، وأن لها عملاً تذهب إليه ومشاكل تحلها ، وأن هناك مكانًا فى الأرض يمكن أن يُخرب لو تغيبت .. هذه نقطة مهمة ..

كان هذا عندما ظهر (جمال) ..

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

دخل الفتى الشركة يسأل عن شىء ما .. نوع من الكلام الفارغ الذى يشبه أعذار (قيس) الملفقة ، ثم اتجه نحوها فى ثبات ، وقال :

ـ « آنسة (غادة عبد الوهاب) ؟ »

هزت رأسها فى حياء ، فقال :

ـ « أنا (جمال أبو غصيبة) .. محام .. »

وسيم جدًا .. أنيق جدًا .. متزن جدًا .. واثق من نفسه جدًا .. إنه باختصار شديد ليس من عالمها ولا سلالتها ، كما تتعامل أنت مع وَشَق الاستبس جميل المنظر .. اعتبرته لا ينتمى للبشر .. ربما أقل أو أكبر ؛ لذا عاملته بلا اكتراث ..

هزت رأسها بمعنى أن ما يقوله مهم جدًا ، فقال :

ـ « هل لى بالجلوس ؟ »

فسمحت له فى حرج ، ولم يكن هناك أحد فى المكتب معهما .. قال وهو يخرج علبة تبغ ويشعل لفافة :

ـ « تبدو مقدماتى غريبة ، لكنك قد التقطت صورًا فى ستوديو يدعى (هالة) منذ شهر .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. »

ـ « صاحب الستوديو صديق عزيز وقد رأيت عنده صورة عملاقة كبرها لك .. ما إن رأيت الصورة حتى نسيت كل شىء .. صار كل همى أن أرى صاحبة هذه الصورة .. وقد سمحت لنفسى بأن أعرف عنوانك المدوّن عنده .. وسمحت لنفسى بأن أعرف أنك تعملين فى هذه الشركة .. »

الآن كانت خمسة لترات الدم الموجودة فى عروقها تحتشد فى خديها .. يا رب .. لا تجعلهما ينفجران الآن وإلا غرق المكتب والملفات فى الدم .. سيغضب المدير ..

قالت بصوت مبحوح :

ـ « هذا .. هذا فضول غير محمود .. كان من واجب صاحب الستوديو ألا .. »

قاطعها بحركة أنيقة من يده التى تحمل لفافة التبغ ، وقال :

ـ « اللوم كله على صديق حشرى مثلى .. لنقل إننى عرفت كل هذا من دون علم الأستاذ (محفوظ) .. »

(محفوظ) ؟ إذن هذا حقيقى ! كل من أنقذوها فى حياتها كان اسمهم (محفوظ) !

ثم أردف :

ـ « الآن جئت أعرض عليك عرضين .. العرض الأول هو أن تعرفينى أكثر ، فلربما تقبلين ما سأعرضه عليك .. أنت تعرفين ما هو .. وهذا يقودنا للعرض الثاني : أن تعملى معى فى مكتبى ! أن تكونى سكرتيرة خاصة لى وبالراتب الذى تحددينه .. وأعتقد أنه بعد شهرين يمكن أن تعرفينى بما يكفى .. عندها سأقدم عرضى الأول : هل لى أن أقابل أباك ؟ »

كان كم المعلومات والحقائق مذهلاً حتى أنها لم تعد تعرف ما تقول ولا كيف تفكر ..

وقد أراحها بأناقة من التفكير عندما لوح ببطاقة صغيرة فى وجهها :

ـ « هنا رقم هاتفى وعنوان العمل .. يمكنك التأكد من أن كل ما أقوله حقيقى .. أعرف أن راتبك هنا ـ عدم المؤاخذة ـ لكنى أقدم لك فرصة حقيقية .. »

فتحت فمها لتتكلم ، فقال بنفس الابتسامة الرقيقة :

ـ « أعرف ما تفكرين فيه .. هذا الرجل يريد أن أعمل عنده لأننى جميلة .. هذا مريب .. لكنى أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك .. أنا

أتكلم عن زواج فإن لم يكن فعن سكرتيرة بارعة أمينة .. صدقينى .. سأنتظر إجابة منك خلال أيام .. »

ثم وقف وزرر سترته فى أناقة ، ودس لفافة التبغ فى المطفأة المجاورة للجدار .. وهز رأسه وغادر المكان ..

* * *

نحن بشر ..

وهذا العرض الذى قدمه ـ برغم غرابته ـ قد هزها بحق .. أدار رأسها وأطار صوابها ..

هذا الفتى الوسيم الأنيق الذى عرك الحياة معجب بها لهذا الحد .. هذا شىء لا يمكن أن يمر بلا تعليق ..

ثم كان عقلها يقول لها : هذا عبث .. إنه يلعب بك .. كل المخادعين يمارسون لعبة مدح المرأة بلا انقطاع .. هو أدرك أنك هشة نفسيًا وصوّب ضربة صائبة إلى قلب هذه الهشاشة ..

يريد أن تعملى عنده لأنك جميلة أو هو يراك كذا .. فهل من شكوك أخرى حول سوء نيته ؟

لكنه تكلم عن زواج ..

أنت لا ترغبين فى الزواج ، لكن كم عامًا يجب أن تنتظرى عريسًا كهذا ؟ ليس الموضوع أنه وسيم أنيق .. الموضوع أنه ساحر .. وأن نظراته زرعت فى أعماقك شيئًا ما ..

هكذا ظلت أربعة أيام تبتلع سرها عاجزة عن اتخاذ قرار .. عاجزة عن مشاركة أحد فيه ..

وفى النهاية وجدت نفسها ـ لم تفعل هى بل وجدت نفسها ـ تمسك بسماعة الهاتف وتتأمل البطاقة ..

كانت بطاقة أنيقة لا تلمع لحسن الحظ .. كم تكره البطاقات اللامعة !

وكان المكتوب يقول :

جمال أبو غصيبة المحامى

المستشار القانونى لجمعية

« الباحثون عن الحقيقة »

رقم الهاتف ....

7

قالت مدام (ثريا) :

ـ « لكنك بالتأكيد قادر على فهم ما يحدث .. »

لسبب ما تثق بى الزوجات فيما يتعلق بأزواجهن .. حدث هذا الموقف مرارًا ، وفى الغالب تؤدى استشارتى إلى زيادة الموقف سوءًا .. كأنما كتب علىّ أن أذكر الناس دومًا بأننى أقل حكمة مما أوحى به ..

قلت لها ضاحكًا :

ـ « بالعكس .. هذه الأشياء من اختصاصه .. »

قالت فى حدة :

ـ « لكنه بالفعل لم يعد قادرًا على تقييم الأمور .. »

كانت تتكلم همسًا لأن د. (سامى) كان فى غرفة المكتب .. هكذا صار ـ كما تقول ـ فى الأسابيع الأخيرة .. وقته موزع بين غرفة المكتب المغلقة أو الخروج للذهاب لتلك الجمعية الغامضة ليبحث عن الحقيقة ..

ـ « لا توجد امرأة فى الموضوع لو كان هذا قد جال بذهنك .. إن النساء يعرفن هذه الأشياء على الفور .. لا توجد مخدرات كذلك .. هذا التغير شيطانى .. »

فكرت قليلاً ، ثم قلت :

ـ « مدام (ثريا) .. زوجك أشيب الشعر وقور يطلب الناس حكمته فى كل وقت .. فلا تحدثينى من فضلك عن التغيرات التى أصابته بسبب أصدقاء السوء .. هذا كلام يقال عن صبى فى الخامسة عشرة .. لكن زوجك ناضج ومسئول عن نفسه بالكامل.. »

قالت فى غيظ أرستقراطى :

ـ « نفس الصفحة فى نفس الكتاب على مكتبه .. هو لا يفعل أى شىء على الإطلاق سوى التحديق فى الصفحة والشرود .. د.(رفعت) .. لو كنت تحسب الأطباء النفسيين لا يمرضون فى عقولهم فأنت مخطئ .. »

ثم أضافت وهى تنهض :

ـ « سوف تقابله الآن ولسوف تخبرنى ما إذا كنت أهذى أم لا .. »

* * *

عندما دخلت المكتب كان جالسًا خلفه يحدق فى صفحات ذلك المرجع العملاق .. وبالفعل أدركت أنه لا يرى أى شىء من الصفحة إنما هو يستخدمها كمرآة تعكس هواجسه الخاصة وصراعه الداخلى .. كل البشر يفعلون الشىء ذاته عندما يحدقون طويلاً فى النار أو البحر .. أى طالب ثانوى يعرف أن صفحة كتاب (آلإستاتيكا) تصلح مرآة ممتازة كذلك ..

- « كيف حالك يا (رفعت) ؟ »

جلست أمامه وقلت بارتباك إننى بخير ما دمت لم أمت بعد ..

قال فى شرود :

- « الموت ؟ من أدراك أن الموت لا يجعلنا أفضل ؟ »

إذن الحالة سيئة فعلاً .. د. (سامى) آخر من يتكلم عن الموت باستحسان ..

ظللت صامتًا بعض الوقت .. ثم قلت :

- « اسمع .. هناك شىء ما لا يريحنى فيك .. شىء يتعلق بتلك الجلسات الجماعية الباحثة عن الحقيقة .. أنت تتغير يا (سامى) .. أنت تعرف أننا صديقان منذ دهور .. لن تخدعنى.. »

قال فى عصبية :

- « أنت لم تكف عن التهيؤات لحظة يا (رفعت) .. لا غبار على ذلك المكان ، ولا غبار علىّ .. »

- « الكل يجمع على أنك صرت عصبيًا ، وأنك صرت تكره اللقاءات الاجتماعية .. باختصار صرت نسخة منى .. وبما أن الشخص لا يتحول إلى (رفعت إسماعيل) فجأة ، فإن لى أن أفترض أن هناك كارثة ما .. »

هنا دوت الضربة ..

حسبته قد صفعنى ، ثم أدركت أنه ضرب المكتب بكفه فى غضب مجنون ، وهو يصيح :

- « صمتًا !! »

تلك النظرة فى عينيه .. أعرفها وأخشاها .. نظرة من فقد صوابه تمامًا أو هو موشك على ذلك ..

د. (سامى) الراقى المنمق الذى يثير الغيظ فى نفسى بكل هذا التهذيب ، صار يصرخ ويضرب المكتب بيده .. يا له من تطور !

قلت فى هدوء محاولاً أن أخفف أثر كل هذا الأدرينالين الذى يفعم الجو من حولنا :

- « هل يضايقك لو كلمتنى أكثر عن تلك الاجتماعات ؟ ماذا يحدث فيها ؟ »

مد يده فى درج مكتبه وأخرج زجاجة صغيرة ما ، ورفعها لفمه وجرع جرعة .. د. (سامى) يشرب الخمر ؟ منذ متى وكيف ؟ هذه هى تغيرات الشخصية المرعبة التى أهابها كالموت .. ذات مرة رأى صديقًا له أمام زجاجة خمر ففر من المكان كغزال مذعور ، لأنه لا يتصور أن يجلس فى مكان واحد مع من يشرب هذا السائل اللعين .. حتى السجائر كان يعتبرها خمرًا من نوع آخر يُشرب عن طريق الأنف .. الآن هو يجرع من زجاجة ويمسح فمه بيده .. لم أر هذه التحولات العنيفة إلا لدى من جن أو هو تحت الاستحواذ .. لكن لماذا ؟

قال فى شرود :

ـ « لا يوجد ما يقال .. نحن نذهب هناك .. جمعية عادية مشهرة لدى الشئون الاجتماعية .. هناك مستشار قانونى هو (جمال أبو غصيبة) .. هناك سكرتيرة هى (غادة) .. هناك نائب رئيس الجمعية المحاسب (عدنان شوقى) .. هناك الأعضاء .. مجلس الإدارة يتكون من عشرة .. »

ـ « هل هناك أعضاء تعرفهم من قبل ؟ »

فكر حينًا ، ثم قال :

ـ « لا .. هناك صاحب ستوديو تصوير يدعى (محفوظ) أعرفه من قبل ، وهو عضو نشيط .. »

ـ « هل هو صاحب تلك الصورة الرائعة المعلقة فى الصالة لك ؟ »

ـ « نعم .. نعم .. ستوديو (هالة) .. فنان حقيقى .. »

وضعت قبضتى تحت ذقنى ، وعدت أسأله :

ـ « ماذا يدور فى هذه الجلسات ؟ هل تستحضرون أرواحًا أو ترقصون عراة حول نجمة خماسية على الأرض؟ ربما تستعملون دماء الأطفال الرضع كذلك ؟ »

نظر لى فى غيظ ، ثم قال :

ـ « بالطبع .. نفعل هذا وأكثر .. ما تتكلم عنه هو لعب أطفال .. »

ـ « جميل .. وماذا تفعلون بالضبط بعيدًا عن هذه الأمور الطفولية ؟ »

ـ « نتأمل ! فلسفة الموضوع كله هى أنك تملك قدرات لا تعرفها مخفية تحت غبار الحياة اليومية .. لديك مواهب لا تعرف كنهها .. ما يحاولون عمله هو جعلنا نجد هذه القدرات .. عن طريق الموسيقا الحالمة .. إضاءة تبدأ محمومة متقطعة ثم تهدأ .. هناك إكسير خاص نشربه يساعدنا على التأمل كذلك .. »

جميل .. ما يتكلم عنه هو نوع من التنويم المغناطيسى الجماعى Mass hypnosis .. والمشروب يحوى مخدرًا بالتأكيد ..

عدت أسأله :

ـ « لكنك لم تتكلم إلا عن محام ومحاسب ومصور .. فما هى الخبرة العظيمة لدى المحاسبين التى تتيح لهم مساعدتك على فهم نفسك ؟ »

ـ « ليس هو من يدير الجلسات .. هناك د. (عامر) .. »

جميل .. هناك د. (عامر) إذن ..

ـ « إنه شخصية فريدة .. رأى العالم .. سافر إلى الصين والهند ودرس أساليب التأمل لدى المتصوفين ولدى رهبان التبت والهندوس .. هكذا كون فلسفته الخاصة .. »

ـ « عظيم .. وهل هذا الـ د . (عامر) أسود الثياب ، له صوت عميق محبب ونظرات ثاقبة ، ويستعمل بكثرة عبارة : أنا بكم أسعد ولكم قلبى يطرب ؟!! »

ـ « لا أفهم ما تعنيه .. لكن الإجابة : لا .. »

كنت بحاجة إلى الاطمئنان لهذه النقطة .. ليس الموضوع مقلبًا من (لوسيفر) على ما أظن ..

ـ « وبعد هذا ؟ »

ـ « لا نذكر أى شىء .. هو قال إننا لن نذكر أى شىء فى البدايات ثم بعد هذا نصير واعين تمامًا لما يحدث .. »

ـ « ألا تجد غريبًا أن تسلم سياقك وأنت الطبيب النفسى المرموق لمن يلعبون هذه الألعاب النفسية السخيفة معك ؟ »

هنا ازداد حدة من جديد ، وصاح :

ـ « عم تتكلم بالضبط ..؟ أنا لا أسمح لك ! أخرج من هنا حالاً !! »

واتجه إصبعه إلى الباب واحمرت عيناه ..

ـ « اخرج ! »

لقد طُردت مرات أكثر من اللازم فى هذه القصة .. يبدو أنهم جميعًا يرون الكثير من أفلام (يوسف وهبى) القديمة ، حتى ليوشك أحدهم أن يصرخ (اخرج عليك اللعنة !) ثم يسقط على الأرض وقد أصيب بنوبة قلبية ..

على أننى اتجهت للباب فعلاً ..

ومن دون أن أنظر للخلف ابتعدت ..

قابلتنى مدام ثريا عند الباب الخارجى ، فهتفت :

ـ « ألم أقل لك ؟ أرجو ألا يكون قد آذاك بكلماته ! أرجوك ألا تتخلى عنه .. »

قلت لها :

ـ « ومن قال إنى أنوى أن أتخلى عنه ؟ سوف أعود مرارًا .. »

ووقفت فى الصالة أنظر إلى تلك الصورة الفوتوغرافية العملاقة الرائعة ..

(ستوديو هالة ـ ستانلى ـ الإسكندرية) .. هذا هو مكان عمل (محفوظ) إذن ..

* * *

على أننى لم أعد إلى القاهرة بعد مغادرتى البيت ..

لقد اتجهت بسيارتى إلى مكان أعرفه ويعرفنى جيدًا ..

مديرية الأمن ..

* * *

8

أطلق العميد (عادل) صديق صباى ضحكته المرعبة التى تهتز لها مديرية الأمن بأسرها ، وسبب ضحكه هو أننى لم أقل دعابة .. هذا بدا له ظريفًا أكثر مما لو فعلت ..

ـ « نيا هاهاها ها ه !!!! ما زلت ظريفًا أيها الحيوان ! »

جندى الحراسة يدخل حاملاً صينية عليها قدح القهوة الرابع .. ويضعه أمامى فأعرف أننى سأشربه أردت أو لم أرد ..

قال لى (عادل) :

ـ « طبعًا هذه القصة مريبة بما يكفى .. من حسن الحظ أنك هنا .. لكن دعنى أؤكد لك أنه لا غبار على هذه الجمعية .. هذا ما نعرفه على الأقل .. أوراقها قانونية سليمة .. لا توجد شكوك حول نشاط سياسى مريب .. »

قلت فى ضيق :

ـ « أنت لا تفكر إلا فى النشاط السياسى .. هذا آخر ما يقلقنى .. »

لمعت عيناه فى ذكاء ، وقال :

ـ « لكن هذا أول ما يهمنا نحن .. ثانيًا : لا نجد شبهة ممارسة أعمال منافية للآداب .. ولا يبدو أن هؤلاء القوم يبشرون بدين

جديد .. لا يوجد شىء .. الأعضاء الذين نعرفهم ليست لهم سوابق ولم يتقدم أحدهم بشكوى ما .. »

ثم أضاف وهو يدون أشياء فى ورقة أمامه :

ـ « من الصعب أن ندس من يتجسس عليهم لأنهم يختارون زبائنهم بعناية .. من الصعب أن ندس أجهزة تنصت من دون إذن النيابة ، والنيابة لن تجد ما يريب فى هذه القصة .. لا يمكن أن نقول لهم إن د. (سامى) قد تغير حتى يتحمسوا ويسمحوا لنا بزرع الكاميرات والأجهزة .. على كل حال لم ينته الأمر بعد .. سوف أحاول ما أستطيع وأخبرك بما توصلت له .. »

ثم عقد يديه تحت فكه ، وقال :

ـ « لكن دعني أخبرك بحقيقة تطمئن إليها .. لا يمكن أن تستعمل المرحاض طويلاً من دون أن يدرك الآخرون ذلك .. »

نظرت له فى عدم فهم ، فقال مفسرًا :

ـ « لابد من أصوات وروائح تشى بأنك استعملت المرحاض .. هكذا الجرائم الخفية .. سرعان ما تصير لها رائحة بعد قليل .. سوف يتكلم أحد الأعضاء أو ينشق عنهم .. معظم تجار المخدرات يسقطون فى شراكنا بمجرد أن يتشاجر التاجر مع امرأته أو يفكر فى أن يأتى له بضَرّة .. عندها تأتى المرأة لنا كى تخبرنا بكل شىء عن زوجها الحبيب .. لا يمكنك أن تستعمل الحمام من دون أن .. »

قلت مقاطعًا فى اشمئزاز :

ـ « فهمت هذا المثل .. (الله يقرفك) .. كان بوسعك أن تبتكر مثلاً له رائحة أفضل .. على غرار (لا يمكنك أن تقطر العطور من دون أن يخمن الناس مهنتك) .. »

قال فى بساطة :

ـ « لكن مثلى أقوى ويلتصق بالذهن أكثر .. »

كان (عادل) قد كون فلسفته الخاصة بعد كل ما رآه فى عمله ، وهى فلسفة تتلخص فى أن كل الناس أوغاد لا يروق لهم سوى الفاحش من القول والفعل .. يحبون من الروائح ألعنها ، ومن الأغانى أصخبها ، ومن النكات أقذرها .. وهم ينقسمون إلى مجرمين ومن يخشون أن يصيروا مجرمين وإن اشتهوا ذلك .. وإنه لولا رجال الأمن لاقتتلت هذه الذئاب ومزقت بعضها البعض فلا يبقى من المجتمع إلا بضعة أطراف مبتورة ملقاة فى الصحراء .. أما عن الدين فهم جميعًا يتظاهرون بالورع لكنهم إذا خلوا إلى شياطينهم تحولوا إلى غيلان ..

هكذا تركت المديرية متوقعًا أننى فعلت ما هو مطلوب منى ..

لكنى برغم هذا لم أرغب فى العودة للقاهرة بسرعة .. كنت أقيم منذ أمس فى البنسيون إياه .. على قدر علمى لا توجد

صاحبة بنسيون إلا واسمها مدام (ليليان) .. وقد شعرت بحاجة نفسية إلى أن أجول فى المدينة الرقيقة الحزينة المبتلة قبل أن أعود إلى المدينة العجوز المتصابية الكنيبة الخانقة ..

* * *

ستوديو هالة ..

هذا ما قالته اللافتة ، وهذا ما جعلنى أتوقف مفكرًا ..

لعله القدر ولعله اللاوعى قد جعلا قدمى تتجهان إلى هنا بالذات ..

مصور يدعى (محفوظ) وستوديو اسمه (هالة) ..

وقفت أقدم ساقًا وأؤخر أخرى .. لا يبدو شديد الرقى .. مجرد ستوديو آخر تزدحم واجهته بصور العرسان يتظاهرون بالسعادة .. أطفال يخرجون ألسنتهم .. الفتى الذى رسم فى عينيه نظرة حالمة وراح ينظر للأفق فى شفافية متظاهرًا بالرومانسية . الفتاة التى قررت أن تبحث عن فرصة عمل فى السينما أو عريس أيهما أقرب .. على الأرجح تفوز بالشىء الثانى وسرعان ما توضع صورتها مع العرسان المتظاهرين بالسعادة .. عدة إعلانات عن الأفلام الخام .. إلخ ..

الرجل الواقف بالداخل وقور أشيب موح بالثقة .. يرفع عويناته على مقدمة رأسه ، ويلبس صديريًا أسود يبدو من تحته قميص

شمر أكمامه .. يقف هناك خلف (الكاونتر) ويرمقنى فى فضول ويضع جانبًا الجريدة التى كان يطالعها ..

وقفت أمامه ولم أجسر على أن أسأله إن كان هو (محفوظ) أم لا ، لكنه هو كما هو واضح ..

ـ « مساء الخير .. صورة للبطاقة الشخصية .. »

رفع حاجبيه الوقورين فى اهتمام .. ثم أشار إلى الداخل دون كلمة أخرى ..

هناك غرفة صغيرة بها مرآة ومشط .. ظل يرمقنى فى فضول بعض الوقت ، ثم قال :

ـ « متأكد من أنك مستعد ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « متأكد ؟ ربما ترغب فى التأجيل لبعض الوقت ؟ »

العبارة المعتادة التى يحيينى بها المصورون .. كأننى سأغيب ساعة ثم أعود بعد ما أجريت جراحتى تجميل وزرع شعر ..

هكذا دخل إلى الستوديو وأضاء عدة كشافات .. هناك كشافات لا يبدو أنها تعكس ضوءًا أصلاً .. ثم جلب كاميرا غريبة الشكل وانحنى خلفها ، ثم قال لى وهو يضبط البؤرة :

ـ « أنت غير مستعد على الإطلاق .. من الغريب أن ترى مدى استهتار الناس بالصور ، مع أنها لحظة تجمد الزمن وتبقى معك ما حييت .. هناك أجيال لن تعرف عنك سوى هذه الصورة .. »

ابتسمت فى استخفاف ، فقال :

ـ « هذا هو ما أعنيه بالاستهتار .. ربما الغباء كذلك ! »

صعد الدم إلى رأسى .. إهانة تأتى من حيث لا تتوقع ولا تعرف السبب .. هنا دوى صوت (كليك) .. لقد التقط لى صورة دون أن يطلب منى أن أبتسم أو أى شىء .. قلت له فى جنون :

ـ « هذا ليس شأنك .. حتى لو جنتك ملطخًا بالطين فليس هذا من شأنك .. لكن الوقاحة والـ .. »

قاطعنى باسمًا وقد تغير أسلوبه على الفور :

ـ « معذرة .. لم أرد أن أضايقك .. فقط أنا أصير فى حالة مغايرة لطبيعتى عندما أعمل .. »

كدت أنهض لكنه أشار لى كى أظل حيث أنا ..

ـ « سأجرب صورة أخرى بكاميرا ثانية .. »

ومن جديد جلست .. هكذا راح يسدى لى النصائح بصدد الابتسام .. والتقط الصورة .. وهذه المرة قال بابتسامة دافئة :

ـ « استرح !! »

قالها بلهجة الجيش وضحك .. ثم قال وهو ينزع كاسيت الفيلم من الكاميرا :

ـ « سوف تتسلمها غدًا .. وأرجو أن تروق لك .. »

خرجت إلى المحل لأنقده ماله وآخذ إيصالاً .. لم تكن التجربة مفيدة لكننى على الأقل ظفرت بصورة ، وهذا شىء نادر لدى لأنى لا أعرف أبدًا أين أحتفظ بصورى الفوتوغرافية .. كما أنى أمقت عملية التصوير .. فيما بعد قرأت للساخر الكبير (أحمد رجب) كيف أنه فى شبابه كان يشبه ممثلاً إيطاليًا شهيرًا بشدة ؛ لذا كان يبتاع صور هذا الممثل من المكتبة ويستخدمها فى الأوراق الرسمية على أنها صورته .. السبب أنها أرخص بمراحل من التقاط صور له ! لو كانت لـ (إدجار آلان بو) صور 6 X 5 ذات طابع عصرى ومع وضع عوينات ، فربما فعلت الشىء ذاته ..

أعترف أن شبهى به قوى .. ألم يحسبنى (سام كولبى) تناسخًا لـ (بو) عندما قابلته أول مرة فى (نيويورك) ؟

قال المصور ، وهو يناولنى دفترًا وقلمًا :

ـ « العنوان ورقم الهاتف من فضلك .. »

قلت فى ارتياب :

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

ـ « هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصة بفلان .. لذا نحرص على هذا النظام .. »

قلت ضاحكًا :

ـ « معك حق .. هناك فتيات كثيرات سوف يزعمن أن الصورة تخصهن ، وهذا لكى يظفرن بصورة لى .. »

لكن الدعابة لم ترق له ولم يضحك ..

كنت أكتب اسمى وعنوانى بالقاهرة عندما لاحظت أعلى الصفحة .. وجدت اسم د. (سامى) مع عنوانه .. هذه هى المرة التى زار فيها الستوديو إذن ..

هذا يدل على شيئين .. أولاً أن عمل الستوديو ليس رائجًا ، ما دام د. (سامى) جاء منذ زمن وبرغم هذا لم تمتلئ الصفحة .. ثانيًا .. العنوان المذكور هو عنوان الفيلا .. العنوان القديم .. ربما كتبه د. (سامى) على سبيل التمويه أو سبيل السهو ..

* * *

« كيف وصلتك هذه الدعوة ؟ »

- *« بالبريد .. من الغريب أنهم أرسلوها إلى الفيلا التى كنت أسكنها ، ولما كان مالكها يعرفنى فقد سلمنى هذا المغلف عندما قابلته .. »*

* * *

على الباب ودعنى الرجل قائلاً :

- « نحن نحاول كسب الزبون الذى أضاعه الآخرون .. لا تنس أن تخبر أصدقاءك عنا .. »

لكنى كنت شارد الذهن فلم أرد عليه ..

ليس هذا الذى وجدته دليلاً على شىء ..

ربما كتب د. (سامى) ذات العنوان فى أكثر من جهة ..

لكن حدسى يقول لى إن هذا العنوان هو الذى استعملوه لإرسال تلك الدعوة لجمعية الباحثين عن الحقيقة .. ضع (محفوظ) الذى هو عضو فى الجمعية .. ضع الستوديو .. ضع الجمعية ذاتها .. ضع العنوان .. ضع كل هذا متجاوراً ولسوف تصل لاستنتاج منطقى ..

من هنا بدأ كل شىء ..

ومن هنا عرفوا عنوان د. (سامى) ..

* * *

9

ظللت أسبوعًا كاملاً فى بيتى بالقاهرة أنتظر أن يتصلوا بى ..

أن يدق جرس الهاتف ليقول لى أحدهم إننى رائع وإنهم يرغبون فى انضمامى للجمعية .. أو تصلنى دعوة بريدية لاجتماعهم القادم .

لم يحدث شىء من هذا .

الصور ما زالت لدى الستوديو .. وما علىّ هو أن أذهب لآخذها كأى عميل ..

* * *

هكذا انتظرت بفارغ الصبر حتى نهاية الأسبوع ، وسافرت إلى الإسكندرية .. أريد الاطمئنان على (سامى) ومعرفة ما توصل له (عادل) .. يمكن أن يتم هذا كله هاتفيًا ، لكنى فعلاً أتوق لرؤية تلك الصور ..

اتجهت إلى ستوديو (هالة) فور وصولى ..

كان مفتوحًا وبالداخل جلس ذلك الرجل الوقور الذى لا يكف عن مطالعة الجريدة .. لكنه كان فى هذه المرة يجلس خلف كوب كبير من الشاى ، وأمامه يجلس رجل له طابع أجنبى متمصر .. واحد من هؤلاء الخواجات اليونانيين الذين يملئون الإسكندرية على الأرجح .. وعرفت من طرف المحادثة أنه الخواجة (بيزانوس) ..

كانا يتكلمان عندما دخلت .. فنظر لى (محفوظ) فى برود لكن فى أدب ، بينما راح الخواجة يرمقنى بفضول غريب كأنما أنا نسيت ارتداء سراويلى .. بالفعل نظرت لأسفل لأتأكد من ذلك .. إنه موجود ..

أخرجت الإيصال بلا كلمة أخرى فنظر له (محفوظ) ، ثم قال كأنما تذكرنى فجأة :

ـ « ياه ! تأخرت كثيرًا يا دكتور .. سأحضر لك الصور .. »

ودخل إلى الغرفة الداخلية ..

فى هذه اللحظة ظهر على الباب من يقول فى لهفة :

ـ « هل السيارة (الفيات) الزرقاء بالخارج ملك أحدكم ؟ »

قال الخواجة بلهجة لم تخيب ظنى فيه :

ـ « نعم .. ملكى .. هل من مشكلة ما ؟ »

ـ « لقد اصطدمت بها سيارة أجرة وفرّت ! »

سعل الخواجة ونهض مذعورًا .. فقط نادى (محفوظ) صائحًا :

ـ « هناك من ضرب سيارتى يا (محفوظ) ! »

على الفور خرج (محفوظ) من الداخل متوترًا مرتبكًا .. وهرع الرجلان خارجين من المحل ليريا هذه المصيبة ..

الآن أنا وحدى فى المحل ..

وحدى .. بالمعنى الحرفى للكلمة ..

ثمة مقولة خبيثة تقول : « لا تترك أى إغراء يمر بك فلربما لا يتكرر بعد ذلك أبدًا ! » .. وهى عبارة صالحة لإفساد المجتمع تمامًا ، لكنها تنطبق علىّ فى هذه اللحظة بدقة ..

وحدى .. ولو انتظرت أكثر فلربما ضاعت الفرصة للأبد .. إما الآن أو لا للأبد ..

من خارج المحل أسمع الشجار والصياح :

ـ « هل تمكن أحد من أخذ رقم السيارة ؟ »

ـ « أعتقد أننى لمحت رقمى 7 و 6 على اليمين .. »

بلا ذرة تردد نهضت .. نظرت حولى ..

هرعت إلى الغرفة الداخلية عالمًا أن هذا عمل خطير .. خطأ قاتل .. لو وجدت أحدًا بالداخل لكان موقفى فى غاية الإحراج .. لن أستطيع أن أزعم أننى أبحث عن دورة المياه ..

من الخارج أسمع الصياح :

ـ « لم يعد هناك ضمير فى هذا العالم .. »

أزيح الستار وأنساب إلى الداخل ..

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

غرفة مضاءة بضوء أحمر خافت يصلح للتحميض .. لكن لا أعتقد أن هذا كان يجرى قبل مجيئى .. هناك حوض محلول مظهر .. زجاجات كيماوية .. جهاز طبع .. مجموعات من الصور معلقة على حبل لتجف .. قصاصات من أفلام ..

الصياح مستمر :

ـ « سليمة إن شاء الله .. احمد الله يا خواجة على أن الضرر اقتصر على هذا .. »

ـ « كشاف وصاج .. لن يكون إصلاح هذا عسيرًا .. »

أبحث حولى فى لهفة .. وجدت مجموعة من الصور لوجوه أشخاص .. صور بالأبيض والأسود .. هناك صور ملونة موضوعة على المنضدة .. غريب هذا فى ذلك العصر ..

لسبب ما بدت لى الصور الملونة غريبة ؛ لذا جمعت ما أمكن منها ودسسته فى جيبى وألقيت نظرة أخرى على المكان .. فيما بعد سيكون هناك متسع من الوقت لأحلل ما قمت به ، ولأحكم هل هو سرقة أم فضول حميد ..

من الخارج أسمع من يقول :

ـ « فقط ادخل يا خواجة .. والصباح رباح .. »

هنا دق جرس الإنذار فى عقلى .. لقد صار الوقت ضيقًا فعلاً .. سوف يعودان ليريانى خارجًا من الغرفة ..

يجب أن أسرع ..

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

وثبت إلى الخارج ، وسمعت الصوت يقترب أكثر من اللازم ..

ـ « حيوانات ! هؤلاء ليسوا سائقين .. بل حيوانات ! »

لم يكن الوقت كافيًا للجلوس ؛ لذا استندت إلى (الكاونتر) .. وفى هذه اللحظة كان الانفعال والأدرينالين قد عملا عملهما معى .. اختلت ضربات قلبى ورأيت تلك البقعة السوداء تكبر وتكبر أمام عينى .. تحاملت كى لا أسقط .. أريد أن .. أقىء ..

(رفعت) .. اهدأ قليلاً .. لو سقطت لبرزت محتويات جيبك .. تماسك ..

فقط شعرت بيد توضع على كتفى ، وصوت (محفوظ) هذا يقول لى :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

قلت والعرق البارد يحتشد على أرنبة أنفى :

ـ « بخير .. فقط أصابنى ذعركم بالهلع .. قلبى ضعيف .. »

ـ « إذن لماذا لا تجلس ؟ »

وشعرت بأن هناك من يجلسنى ومن يقدّم لى كوبًا من الماء .. ثم فتحت عينى لأرى الخواجة يقول :

ـ « لا تقلق .. لم يصب أحد .. لقد كانت ساعة نحس لا أكثر .. مقدمة السيارة تلفت تمامًا .. »

وظهرت نظرة حاقدة فى عينيه تقول بوضوح إننى أنا النحس ..

نظر لى (محفوظ) نظرته الباسمة الدافئة الموحية باهتمام شخصى .. هذا الرجل يجيد مهنته ويجيد رسم تلك البسمة الصناعية التى تشعرك بأنه يهتم بك فعلاً .. ربما هو يعوى فى الوديان المقفرة مترنمًا باسمك ..

سألنى :

ـ « هل أنت بخير الآن .. »

ـ « نعم .. شكرًا لك .. »

جاءنى بمغلف كبير يحوى صورى ومعها صورة عملاقة متقنة .. صورة فى حجم ولها ذات طابع صورة د. (سامى) المعلقة فى داره ، وقال لى :

ـ « نرجو أن تحب هذه الصور وأن نراك بكثرة .. »

حملت المغلف شاكرًا وغادرت المحل ..

فى الخارج كان المارة يقفون حول السيارة التى تهشمت مقدمتها فعلاً .. حظ سيئ للجميع باستثنائى لأن الفرصة جاءتنى على طبق من فضة ..

دنوت من سيارتى فوجدت أن مقدمتها ليست أفضل حالاً .. لقد كانت تقف خلف سيارة الخواجة الزرقاء ، وقد اصطدم التاكسى بسيارة الخواجة من ثم وثبت للخلف لتضرب سيارتى .. فقط هذه إصابة لم يهتم بها أحد ولم يلحظها ..

لو لم تدر السيارة فلربما ...

أدرت المحرك فانطلقت السيارة لحسن الحظ .. فى ذات اللحظة رفعت عينى نحو المرآة فى الصالون لأجد (محفوظ) يهرع لباب المحل ويشير إلى سيارتى فى لهفة .. لسان حاله يقول : هذا هو ! هذا هو من أخذ الصور من الغرفة الداخلية !

وربما لا ..

ربما تذكر شيئًا يتعلق بالمال المدفوع .. ربما كان علىّ أن أدفع مبلغًا إضافيًا .. ربما ..

المهم الآن أن أهرع إلى البنسيون لأرى هذه الصور ..

* * *

نثرت الصور على الفراش فى غرفتى ورحت أتأملها ..

كلها صور لوجوه أشخاص متنوعين .. لكن هناك ألوانًا غريبة مستعملة فى الصور جميعًا ..مثلاً هذه هى صورة وجهى ، وهى تظهر هالة خضراء تحيط به تمامًا .. كأنى مشع من الداخل ..

هناك صورة لفتاة نحيلة سمراء تحيط بها هالة من لون أحمر .. صورة لرجل هو مزيج من الأخضر والأزرق .. صورة وجه د. (سامى) وهالة حمراء تحيط به ..

هكذا تتباين ألوان الصور وتتباين الوجوه ..

ما معنى هذا ؟

هنا دق الباب فأجفلت .. اتجهت لأفتحه ليطالعنى الوجه الصبوح الجميل لمدام (ليليان) ..

فى الخمسين من عمرها لكنى أراها ما زالت فاتنة بحق ، ومن الغريب أنها تعنى بى عناية خاصة كأنها تفكر فى دور آخر لى غير النزيل ..طبعًا أنا لا أصلح حبيبًا لكن أصلح زوجًا .. هذا أحمق لم يتزوج بعد ، ومن الواضح أنه معجب بى وإن كان يتظاهر بالعكس ..

سألتنى فى لطف كعادتها ، وبلهجتها الركيكة المحببة :

- « هل من شىء تريده يا (دوكتيور) ؟ »

هززت رأسى بمعنى أن ما أريده هو أن تظل بخير .. فقالت :

- « لدينا (ديوف) الليلة .. لماذا لا تلهاك بنا فى غرفة الما إيشة ؟ »

- « حاضر .. سألحق بك ما أن أبدل ثيابى .. »

وأغلقت الباب وعدت للفراش كى أتأمل الصور ..

هنا بدأت ذكرى مجهولة تتوهج فى عقلى .. كأنها لحن أغنية نسيته ثم عاد لك فجأة ..

لم يكن اسم ستوديو (هالة) مصادفة أو لأنها ابنة صاحب الستوديو .. إن الأمر يتعلق بالهالات فعلاً .. نوع من التلميح الخبيث الذى يعرف صاحبه أن أحدًا لن يلاحظه ..

هذه الطريقة فى التصوير مألوفة ..

هذا هو تصوير (كيرليان) !

* * *

الجزء الثانى

نادى الغيلان

> « فى فى فو فام ..
>
> أشم دماء رجل إنجليزى ..
>
> سواء كان حيًّا أو ميتًا ..
>
> فلسوف أحمّص عظامه لأصنع خبزى ! »

1

فى يوم الجمعة بعد الصلاة يذهب (سمير النمر) إلى المقابر ..

لابد من أن يقف عند قبر أبويه ويتلو الفاتحة وسورة (يس) ، وهى عادة لم ينقطع عنها منذ عشرين عامًا بينما هو يدنو من الخمسين الآن .. يلتف حوله ذباب المقابر المتمثل فى سكانها من الصبية الذين يتسولون لمجرد أنهم هم وأنه هو .. هناك من يزعم أنه (مقرئ) ويجلس القرفصاء أمام القبر ليقرأ سورة واحدة قصيرة من القرآن .. سورة واحدة هى (الفتح) يقرؤها فى كل مرة ولا يغيرها أبدًا .. ويخطئ فيها عشر مرات ..

لهذا يحاول (سمير) جهده أن يتخلص من هؤلاء ..

والحقيقة أن (سمير) بعد كل هذه الأعوام صار يحفظ كل حجر فى المقابر ، وصار يعرف من جاء جديدًا ، وماذا حلّ بتربة أسرة فلان ..

ومع الوقت اكتسب ذلك الطابع المولع بالموت .. ما يطلق عليه علماء النفس (تافيفيليا) ، وهو الولع الشهوانى بالمقابر وتفاصيل الدفن .. يتكلم عنها فى استمتاع غريب ، ويحكى عن (التربة التى ترد الروح) التى ابتناها للأسرة ، وكيف طعم مدخلها بالرخام وزرع الصبار فى كل مكان .. هذا طبع فرعونى لا شك فيه باق فينا

منذ عهود الأسرات .. (خوفو) لم يكن يتكلم عن شىء سوى القبر الفاخر الذى أعده لنفسه ، غير عالم أنه لن يخدم أحدًا سوى مصلحة الآثار ..

لا أحد يجرؤ على اتهام (سمير) بالتافيفليا .. بالنسبة للناس هذا نوع من الورع الشديد لشخص يعتبر أن حياته مؤقتة سرعان ما تنتهى فى القبر .. لكنك ترى لمعان عينيه والابتسامة الشاحبة المرتعشة على وجهه وهو يتكلم عن المقابر ، فتقول لنفسك : هذا الرجل يتلذذ بالفكرة .. لكنك لا تجسر على قول هذا علنًا ..

ونتيجة لهذا الولع كان (سمير) هو خبير الموت فى الشارع والعمل والأسرة والبناية .. كلما مات الحاج (عبد السميع) أو الحاجة (صفاء) كالعادة ، كان هو أول من ينادونه .. عندها يقف فى زهو وهيبة وسط المكان ويخرس النسوة الباكيات ، ثم يصيح كأنه جنرال :

ـ « صمتًا ! »

ثم ينظر لمن حوله فى خطورة ، ويقول :

ـ « هل هناك من نادى الحانوتى ؟ »

وسرعان ما يعرف كل واحد مهمته .. فإذا تكلم واحد صاح فى عصبية :

ـ « صه ...! لا أريد هذا الهرج .. سوف نصلى على الجثمان فى (المرسى أبو العباس) وبعدها نتحرك للمدفن رأسًا .. »

ـ « ولكن ! »

ـ « صه !! »

ثم يخرج ورقة وقلمًا ويبدأ فى كتابة النعى الذى سينشر فى الجريدة غدًا ، لو كانت الأسرة موسرة .. هو نفسه من يتفق مع المقرئين والصوان وكل شىء .. ثم يتحدث فى استمتاع عن العظام وكيف أنها ستسعد بلقاء عظام قريبة لها هذه الليلة ..

ـ « لابد من أن يدفن المرء جوار أقاربه .. هكذا تكون الليلة عرسًا من السرور ! »

فيرتجف الناس وهم يتخيلون الجثث ترقص تحت الأرض طربًا .. هذا الخيال (اللافكرافتى) الرهيب يبدو له ممتعًا جدًا ..

فى هذا اليوم ذهب (سمير النمر) إلى المقابر ووقف يتلو الفاتحة كعهده ..

هنا لاحظ شيئًا غريبًا ..

كانت هناك فتحة قرب الأرض فى جدار المقبرة ، وهى فى المعتاد مسدودة بالأسمنت .. لكنه رأى أن لون الأسمنت اختلف كأنه شبه طرى .. هناك الكثير من البلل ومسحوق على الأرض ..

عندما دقق أكثر وجد قطعة ممزقة من قماش على بعد خطوات من المقبرة ..

فى خطوات حازمة اتجه إلى غرفة اللحاد .. غرفة اللحاد تقع على مدخل المقابر ، ويجلس فيها عم (جابر) الجثة الحية يدخن .. الحشيش طيلة اليوم .. لا يفعل أى شىء آخر .. ولسبب ما يفضل اللحادون ألا يلبسوا سراويل .. لهذا تجد الرجل جالسًا بسراويله الداخلية كاشفًا عن ساقين نحيلتين يغطيهما شعر أبيض .. ولسبب آخر يشعر اللحادون بأن كل الكلام (قافيات) لذا يحاولون إنكار ذلك ..

ـ « صباح الفل يا أستاذ سمير.. »

سأله (سمير) غير مبال برد الصباح :

ـ « هل هناك من دُفن فى تربة أسرتنا أمس ؟ »

هز الرجل رأسه وأطلق سحابة دخان كثيفة ..

ـ « لا أحد (بلا قافية) .. أطال الله عمركم .. »

ـ « إذن تعال معى .. »

وعاد الرجلان إلى المقبرة .. وكانت نظرة سريعة من اللحاد كافية ليعرف أن شيئًا ليس على ما يرام .. هناك من نبش المقبرة ثم سدها بأسمنت حديث ..

ركل (سمير) قطعة القماش بطرف حذائه ، وقال :

ـ « وهذه ؟ هذه من كفن عمتى (فوقية) .. أنا أذكر طبقاته جيدًا .. »

برغم أن عمته ماتت منذ عشرة أعوام ، فهو كان يعتبر الأكفان أعمالاً فنية لا يمكن نسيانها ..

من أين تأتى هذه المصائب ؟ قال اللحاد وهو يضرب أخماسًا فى أسداس :

ـ « هناك (بلا قافية) من عبث فى التربة .. هذا واضح .. لكن من ؟ لا أحد يجسر على أن يفعل هذا وأنا ساهر أحر ... »

ـ « أنت لا تفعل سوى أن تغيب عن الوعى مع كل هذا الحشيش .. لو أنهم سرقوا التربة ذاتها فلن تدري.. »

ـ « لا تقل كلامًا غير معقول يا أستاذ (سمير) .. أنا (بلا قافية) أعرف هذه التربة كظهر يدى .. »

كان (سمير) غارقًا فى التفكير ..

قرار خطير هو أن يأمر بنبش التربة لمعرفة ما حدث لها .. لابد من أن يدعو لمجلس عائلى يجتمع فيه كبار الأسرة .. لابد (بلا قافية) من أن يأتى عم (حمزة) وكل مجموعة (الدلنجات) .. لابد أن يكون القرار جماعيًا لا يتحمل مسئوليته وحده ..

* * *

وفى أماكن أخرى من المقبـرة ـ فى ذات الأسبوع تقريبًا ـ تم اكتشاف أشياء مماثلة ..

على أن هناك اثنين أو ثلاثة قرروا خرق (التابوو) المحيط بالمقابر .. هناك من ذهب إلى مديرية الأمـن وقدم بلاغًا وطلب إثبات الواقعة ..

* * *

فى فى فو فام .. (بلا قافية) ..

* * *

2

فى العام 1940 أجرى المخترع السوفييتى (سيمون كيرليان Kirlian) تجربة مثيرة ، كان لها أن تلقى شهرة لا بأس بها ..

لقد قام بالتقاط صور للهالات الحيويـة المحيطـة بالبشر أو ما يطلق عليه الغربيون aura ..

التجربة تقـوم علـى التقـاط صـور للأشخاص فى وجـود حقل كهربى عالى التردد عالى الفولت منخفض الأمبير .. هكذا تظهر حول الأجسام هالات ملونة يطلق عليها (الهالات الحيوية) ..

فى الحقيقة لم يكن (كيرليان) أول من جرَّب هذا الأسلوب ..

قبله كانت هنـاك طريقة لتصوير الأجسام فى حقل كهربى ، وكـان يطلق على الطريقـة اسم (التصوير الكهربى Electrography) .. وقد نشر العالم الروسى (ياكوف يوكدو) بعض هذه الصور عـام 1908 .. كما نشرها عالمان تشيكيان هما (برات) و(شليمر) ..

يقول المعترضون على هذه الطريقة إنها لا تدل على شىء .. مجرد شحنات كهربية تغادر الجسد فـى ظروف بعينهـا .. بينمـا يرى آخرون أنهـا تظهر الطـاقة النفسية فى صورة فيزيائيـة .. وهناك من قال إنها تظهر الجسم الأثيرى للأحياء ..

فى أول تجربة له قام (كيرليان) بتصوير يده .. وقد لاحظ خروج ضوء برتقالى من أطراف أنامله ..

بعد هذا كرر التجارب بمعونة زوجته التى كانت تدرس علم الأحياء .. وقد تكررت النتائج ..

هذه الظاهرة هى ما يدعى Corona discharge phenomenon أو (ظاهرة انبعاث الهالات) .. هنا يبعث الجسم شررًا كهربيًا عندما يوضع جوار قطب يولد حقلاً كهربيًا .. وهذا الشرر يمكن تصويره ..

فما دخل هذا بقصتنا ؟

* * *

فى الستينيات بدأ الاهتمام بتجارب (كيرليان) ..

وفى العام 1966 اجتمع عدد من العلماء لتدارس الظاهرة .. زعم العالم السوفييتى (فكتور أدامنكو) أن سبب الظاهرة هو (انبعاث بارد للإلكترونات) .. وقد لاحظ أن الانبعاث يزداد قوة فوق 700 نقطة من الجسم البشرى تتطابق مع مواضع الإبر الصينية بالضبط ! هذا يعنى أن الصينيين لم يصفوا هذه النقاط اعتباطًا .. كانوا يعرفون ما يفعلونه .. على أننى أعتقد أن أى علم زائف اليوم يحاول أن يجد له قريبًا بعيدًا عند الفراعنة أو الصينيين ...

هذه الهالات تتغير حسب الحالة النفسية والفيزيائية .. مثلاً استطاع العلماء الأمريكيون فى جامعة كاليفورنيا تصوير تغير الهالات فى ورقة نبات عندما تدنو منها يد بشرية .. بل إن قطع جزء منها يؤدى لنزف الهالة من الجزء المقطوع ..

هذه النقطة التى يؤيدون بها الظاهرة قد تستخدم لدحضها كذلك .. لو كان ما تصوره الكاميرا حقلاً حيويًا فمن الواجب ألا ينبعث من أجسام ميتة .. والحقيقة أنه أمكن تصوير هالات حول الأجسام الميتة كافة ..

عامة يتم استعمال ملف (تسلا Tesla) يتصل بصفيحة معدنية .. الاسم طبعًا نسبة للعالم الصربى العبقرى (نيكولا تسلا) الذى قابلناه فى أسطورة بيت الأشباح ، وذلك لتوليد حقل كهربى عالى التردد عالى الفولت منخفض الأمبير .. هكذا تتكرر تلك الظاهرة التى يعرفها علماء الطبيعة ، ويطلقون عليها (نار القديس إلمو) .. ولمن نسوا هذه الظاهرة التى ذكرتها فى مكان ما ، أذكرهم بأنها ذلك الضوء الأزرق الغامض الذى يحيط بالأنوف والغلايين فى شتاء البلاد الإسكندنافية وأماكن أخرى عدة ..

طلبًا لتقليل الأثر الضار للعملية ، وحتى لا تتدخل الموجات المستخدمة فى النتيجة ، يستخدم العلماء اليوم جهازًا يدعى Crown TV يقوم بإرسال نبضات قصيرة جدًا لا تتعدى 50 ملى ثانية .. وهم يصورون جزءًا صغيرًا فى كل مرة .. غالبًا طرف إصبع .. أو عشرة أصابع طلبًا للدقة ..

حتى اليوم تستخدم الظاهرة فى تشخيص السرطان (بلا نجاح كبير) .. ولها تطبيقات لا تنتهى فى العلم وشبه العلم .. وهناك من اختصوا بتفسير كل تغير لونى ، ويزعمون أنهم يعرفون كل شىء عن الجسم بهذه الطريقة ...

كما ترى كان تصوير (كيرليان) هدية السماء للمتكلمين عن الإيقاع الحيوى ، والإسقاط النجمى ، وكل هذه الأمور ..

كل هذه أمور مألوفة تقرؤها فى كل مكان ، وهى من (شبه العلم) الذى يروق للناس من هواة (هل تعلم ؟) .. هل تعلم أن النبات يحب موسيقا (بيتهوفن) ؟ هل تعلم أن ما فى جسمك من حديد يكفى لصنع كذا مسمار .. ؟

(يورى جيلر) النصاب الإسرائيلى الذى يزعم ثنى المعادن بالفكر ، كسب الكثير من سمعته عندما التقطت الكاميرا هالات

غريبة المنظر تخرج من أطراف أنامله عندما يثنى المعادن .. طبعًا لا أصدق حرفًا من هذا ..

لكن تظل هناك حقيقة مؤكدة هى أن هناك هالات ملونة تنبعث من الأجسام الحية والميتة ..

الحقيقة الثانية هى أن ستوديو (هالة) يصور زبائنه بهذه الطريقة .. وهذا هو سر الكاميرا الغريبة التى التقطوا بها الصورة الأولى .. وسر الكشافات التى لا تبعث ضوءًا .. إنه مجرد مجال كهربى عالى التردد لينبعث الشرر منك ..

لقد تم تصوير د. (سامى) وتصويرى .. لا أعرف الآخرين الظاهرين فى الصور ، لكنهم ـ أصحاب الستوديو ـ قد وجدوا مأربهم فى د. (سامى) بينما أنا لم أمثل سوى زبون لا يصلح لشىء آخر ..

يمكن القول بلا خطأ كبير إنهم يبحثون عن تلك الهالة الحمراء حول المرء ، فإذا وجدوها عرفوا أنه يصلح للانضمام لهم .. ربما كان الأمر أعقد من هذا لأن قراءة هالات (كيرليان) صعبة .. لابد أنهم يبحثون فى عدة معايير ضوئية قبل الحكم ..

هل هذا منطقى ؟

بالتأكيد هو كذلك ..

كلما فكرت فى الأمر أكثر وجدت أن هناك سرًا مرعبًا يحيط بهؤلاء .. لا توجد جمعية (تبحث عن الحقيقة) تنتقى أعضاءها بتصوير (كيرليان) ..

الأمر أعقد من هذا وأخطر ..

* * *

3

دق الباب مرتين فاتجهت لفتحه بعد ما داريت الصور المتناثرة على الفراش ..

مدام (ليليان) من جديد تصرُ على أن ألقاهم فى قاعة المعيشة - الما إيشة على حد قولها - لأن هناك الكثير من الضيوف .. طبعًا يمكن القول أن مزاجى كان فى أسود حالاته، والعلاقات الاجتماعية هى آخر ما أفكر فيه .. لكنى عاجز عن أن أقول لها لا ..

هكذا بدلت ثيابى بسرعة وخرجت إلى قاعة المعيشة الرحبة التى تذكرك بأجواء (ميرامار)، حتى لتعتقد أنك ستجد (حسنى علام) جالسًا فى أية لحظة .. وتسمع (فريكيكو .. لا تلمنى) ..

كان النزلاء هناك يدخنون ويقرءون الصحف، وبعضهم يلعب الشطرنج أو الطاولة .. مكان نظيف مريح، لكنى لا أعرف أحدًا باستثناء مدام (ليليان) نفسها لأننى لا أستقر هنا .. ربما بضعة أيام وربما هو يوم واحد لا أكثر ..

كانت مدام (ليليان) جالسة هنالك .. ما زلت أراها رائعة الجمال كما قلت لك ، ولكنى أقول هذا وأصمت .. نصفى الآخر موجود هنالك فى (إنفرنسشاير) ولا أنوى أن أغيره .. فلما رأتنى هبت ضاحكة ، وقالت بلهجتها الركيكة التى لن أكتبها كما هى من الآن منعًا للتعقيد :

ـ « د. (رفعت) ! كنت بانتظارك .. ! »

كانت تجلس على مقعد خشبى صغير جوار أربعة رجال يحتلون الأرائك ، وهم منهمكون فى مراقبة رقعة شطرنج ..

هناك رجل يبدو أجنبيًا يضع الكاسكيت على رأسه ، وقد أراح ذقنه على مقبض عصا من عاج ، وراح يراقب الرقعة فى استغراق ونهم .. وأمامه رجل أصلع الرأس عجوز إلى حد لا يصدق ..

قالت المدام :

ـ « يا سادة .. حيوا الدكتور (رفعت إسماعيل) خبير عالم ما وراء الطبيعة .. الرجل الذى أفنى حياته فى دراسة الظواهر الغامضة .. والذى شرفت بأننى استضفته فى كل مرة جاء فيها إلى الإسكندرية.. »

رفعوا العيون ليروا إن كنت أستحق أن يوقفوا المباراة من أجلى ..

سمعتها تقدمهم لى :

ـ « مهندس (عامر) .. أستاذ (داود) .. الخواجة (بيزانوس) ابن خالتى .. الخواجة (ستافروس) من (بيريه) مسقط رأسى .. »

فى هذه اللحظة التقت عيناى مع الخواجة (بيزانوس) .. الرجل اليونانى الذى كان فى ستوديو التصوير اليوم ، والذى تحطمت سيارته الزرقاء .. إنه هو الذى كان يلبس الكاسكيت ويتوكأ على عصاه ..

إذن هو هنا ! بل هو ابن خالتها كذلك !!

كانت فى عينيه نظرة غامضة هى مزيج من الدهشة والتوحُّش والغضب والرضا .. نظرة تقول بوضوح : « إذن هو أنت !! »

انتهى الأمر ولم تعد هناك حيل .. لا مجاملات .. هذا الرجل على علاقة حميمة بصاحب الستوديو (محفوظ) ، وهو يعرف أن صورًا قد اختفت .. والمتهم الوحيد هو هذا الذى تركاه وحده فى المحل لحظة التصادم ..

جلست على مقعد خشبى ، وأنا أراقب ما يجرى فى المباراة .. موقف محرج جدًا .. أسمع مدام (ليليان) تكلمنى فلا أعى حرفًا مما تقول ..

واضح أيضًا أن المباراة انتهت بالنسبة للخواجة (بيزانوس) لأنه لا يتابع ما ينقله على الإطلاق .. وبدأت التعليقات عن لعبه المثير للشفقة ..

أخيرًا نهضت وقلت للمدام المندهشة إننى راغب فى النوم لأنى متعب .. حييت الجالسين بهزة رأس ، فنظروا لى بدهشة .. ما كان لزوم ظهوره إذن ؟ وأين عبقرية الأكوان التى بشرتنا بها (ليليان) لدى ظهور هذا النصب التذكارى الأصلع ؟

كنت بحاجة إلى الفرار .. من العسير أن أفرّ من البنسيون فى هذه الساعة ، لكنى لا يجب أن أبقى فى هذا الموقف السخيف ..

اليونانيون يجدون بعضهم فى أى بلد كما يفعل الصعايدة عندنا .. لماذا لم يخطر لى هذا ببال ؟

* * *

نمت مبكرًا بعد أن أخبرت مدام (ليليان) إننى راحل فى الصباح الباكر ..

ولما كان اليوم حافلاً بالأحداث والإرهاق ، فإن هذا أدى مفعولاً عكسيًا .. هناك درجة حرجة ما من الإرهاق تجعلك تنام كلوح الخشب ، فإذا تجاوزتها استحال النوم ..

رحت أتقلب بينما الظلام يعمل عمل شاشة السينما التى تدور عليها أحداث اليوم .. يا لها من كارثة ! سوف أقود سيارتى صباحًا وأنا مخدر غير واعى الذهن ، دعك من أننى سائق سيئ أيضًا .. بل أنا أسوأ سائق سيارة عرفته أو قابلته فى حياتى .. إن مشهد جثتى النازفة والمغطاة بالصحف على جانب الطريق لا يفارق خيالى ..

رحت أتأمل الظلام محاولاً أن أعقد معاهدة مع النوم ..

هنا سمعت الصوت ..

كليك .. كلانك .. كليك ..

هناك من يحاول فتح الغرفة بالمفتاح !

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

تصلبت جالسًا .. ورحت أنظر باتجاه الباب الموارب .. فعلاً هناك مفتاح .. لكنى أغلق بابى بالمفتاح من الداخل فى الأماكن الغريبة ، وأترك المفتاح فى الكالون .. هكذا من المستحيل أن يدخل القادم الغرفة بهذه الطريقة ..

اثنان يتهامسان وهناك أنثى فى الموضوع .. مدام (ليليان) طبعًا ما دام المتسلل يحمل مفتاح الغرفة ..

ولكن من هو ؟ ولماذا يتسلل ؟

لا أعرف .. لكن السطو ليس الهدف بالتأكيد ..

جعل اضطراب النوم ذهنى صافيًا شفافًا ، وهى مقولة غريبة لكنها صادقة .. لقد بدا الأمر واضحًا كالشمس .. الخواجة (بيزانوس) على الباب مع قريبته .. لا شك فى هذا ..

مددت يدى فأضأت النور .. ثم أمسكت بالهاتف الموضوع جوار الفراش وأدرت رقمًا .. أى رقم .. وقلت بصوت عال :

ـ « آلو .. الشرطة .. ؟ أنا د. (رفعت إسماعيل) المقيم فى بنسيون مدام (ليليان) .. وعنوانه هو (...) .. هناك من يحاول اقتحام غرفتى الآن لقتلى أو سرقتى .. أرجو أن تأتوا حالاً !! »

على الفور توقف صوت العبث فى الباب ..

يبدو أن الحيلة انطلت عليهما أو عليهم .. لو كنت مكانهم لما خاطرت ..

هكذا مر الليل ..

وفى الصباح الباكر سمعت صوت نزلاء البنسيون الذين يذهبون للحمام أو يعودون منه .. هناك شهود على وجودى إذن ..

ارتديت ثيابى واتجهت إلى سيارتى ..

لم ألق المدام ولا أريد لقاءها .. بحثت عن مكان يقدم لى بعض القهوة المركزة ، ثم بحثت عن ميكانيكى يصحو مبكرًا أكد لى أن السيارة لم تصب بخلل كبير فى حادث أمس .. فقط صار منظرها مرعبًا لكنها قادرة على قطع الرحلة إلى القاهرة ، وخلال نصف ساعة كنت على الطريق السريع ..

كنت فى طريقى إلى بيتى ..

* * *

لولا سلامك سبق كلامك .. لأكلت لحمك قبل عظامك ..

* * *

كنت أحمل حقيبتى الخفيفة عندما أسرع بواب البناية ليساعدنى ..

عندما تكون الحقيبة ثقيلة فعلاً لا يظهر أبدًا .. أما الآن فهو يعرف أنها مهمة سهلة سوف تنتهى بالبقشيش ..

قال لى وهو يصعد الدرج :

ـ « حمدًا لله على السلامة يا دكتور .. لقد جاء قريبان لك ثلاث مرات أمس .. سألا عنك ، لكنى قلت لهما إنك فى الإسكندرية .. لم أعرف موعد عودتك .. »

قريبان ؟

أخى وعمى مثلاً ؟ عمى وابنه ؟ ابن عمى وأخوه ؟

قال البواب فى مرح وهو يثب الدرجات وثبًا :

ـ « إنهما من مركز (كوم حمادة) مثلى .. سرنى هذا كثيرًا .. دعوتهما لشرب الشاى وتكلمنا عنك كثيرًا ! »

(كوم حمادة) ؟ كل شخص على وجه الأرض يعرف أننى شرقاوى .. لكن البواب لا يعرف بالطبع .. قريبان لى من (كوم حمادة) .. هذا جميل فعلاً .. كلنا أقارب بحكم نسبنا لآدم عليه السلام ..

ـ « كيف يبدوان ؟ »

توقف البواب على باب شقتى وراح يلهث .. ثم قال :

ـ « ضخمان .. قويان .. كلاهما يلبس نظارة سوداء .. ما شاء الله .. لكن لون بشرتهما غريب .. كأنه التراب .. »

ما شاء الله .. صار البواب فنانًا تشكيليًا يجيد ملاحظة ألوان البشرة .. كنت قد تعلمت منذ زمن أن الناس فى مصر لا تستعمل عيونها على الإطلاق ، وأن أشياء بسيطة مثل العوينات والشارب تمر دون أن يلاحظها أحد .. تذكر قصة المرأة العجوز التى وصفها (توفيق الحكيم) فى (يوميات نائب فى الأرياف) وكيف وقف أمامها المتهمون بسرقتها فى عرض قانونى ، فراحت تتفحصهم واحدًا بعد الآخر .. توطئة لأن تضرب وكيل النيابة

الشاب ـ مساعد (توفيق الحكيم) ـ ضربة عاتية فى صدره وهى تصيح : هو ده غريمى يا بيه !

لكن البواب كان يملك تفسيرًا :

ـ « نحن ـ البحاروة ـ بيض البشرة .. من الغريب أن تجد هذا اللون عندنا .. »

فتحت شقتى ودخلت .. وبدا لى أنه لم يعبث بها أحد ..

أغلقت الباب خلفى ناسيًا البواب الذى بالتأكيد نزل الدرج وهو يسب ويلعن (أفندية آخر زمن) ..

* * *

ـ « العنوان ورقم الهاتف من فضلك .. »

قلت فى ارتياب :

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

ـ « هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصة بفلان .. لذا نحرص على هذا النظام .. »

قلت ضاحكًا :

ـ « معك حق .. هناك فتيات كثيرات سوف يزعمن أن الصورة تخصهن ، وهذا لكى يظفرن بصورة لى .. »

لكن الدعابة لم ترق له ولم يضحك ..

* * *

طبعًا عنوانى عندهم .. ولو كنت أكثر ذكاء لكتبت لهم أى عنوان .. مرفق الصرف الصحى مثلاً ..

يسهل افتراض أن هذه الزيارة جاءت من ذات الذين زارونى فى حجرتى أمس .. رجلان غريبان يكذبان ويسألان عنى بلهفة .. لابد أنهم افترضوا أننى عدت للقاهرة فى اليوم ذاته .. ولهذا فوجئ (بيزانوس) عندما رآنى فى البنسيون ..

سوف يعودان ..

هذا مؤكد ..

السؤال المهم هو : لماذا ؟ ما أهمية هذه الجمعية ؟ ما الذى يقومون به فعلاً ؟

واضح أن قيمة هذه الصور التى معى عالية جدًا .. أهم بكثير مما أتصور ..

فقط أعرف أننى على الأرجح فى خطر داهم .. لا أثق فى أى شخص ضخم أسمر اللون يعرف عنوان بيتى ، خاصة لو زعم أنه قريبى ، والأدهى أن يزعم أنه من (كوم حمادة) وهو ليس كذلك ..

* * *

مددت يدى لأستخدم الهاتف ..

وطلبت رقمًا فى الإسكندرية ..

* * *

4

نعم يا (عادل) ..

الأمر كله مريب وخطير ..

لا تقاطعني .. أعرف أنك عبقرى وأنك تفهم كل شىء .. لكن أصغ لى قليلا ..

لدينا هذه الجمعية التى لا نعرف نشاطها فعلاً ، لكن أعضاءها يتم اختيارهم عن طريق هذا التصوير (الكيرليانى) .. هناك هالة معينة حول الأشخاص الصالحين .. عندنا اقتربت من الحقيقة قام بعضهم بمحاولة اقتحام حجرتى ، وجاء من يسأل عنى فى بيتى ..

ما سر هذه الحماسة ؟

لماذا تتغير أخلاق من انضموا للجمعية ؟

بينى وبينك الأمر لا يوحى بنشاط إجرامى ما .. يوحى بما هو أخطر .. ألم تفكروا قط فى أن هذه شبكة تجسس ؟ وأن (عدنان) هذا مجرد ضابط تجنيد ؟ ربما كان اسمه الحقيقى (رعنان) لا (عدنان) .. وربما كان د. (عامر) هو (عامير) ..

فقط الجواسيس يتصرفون بهذه الحماسة والعنف .. إنهم لم يتأخروا أكثر من بضع ساعات للبحث عن دارى ..

أنصحك يا (عادل) بأن تجد طريقة لتفتيش هذه الفيلا .. سوف تجد أشياء مثيرة وأنا واثق من هذا ..

واضح أن المرحاض لم تنبعث منه أية روائح ، ولربما لا يحدث هذا أبدًا لو انتظرنا صدق نظريتك ..

* * *

جاءنى صوت (عادل) القلق عبر الهاتف يقول :

ـ « فى الحقيقة يا (رفعت) أنا قلق مثلك لكن ما نعرفه لا يسمح بعمل تفتيش .. »

ثم أضاف بعد هنيهة :

ـ « لا أرى ما يمنع من أن تأخذ إجازة عدة أيام وتسافر إلى قريتك أو تقيم فى الإسكندرية فى عنوان لا يعرفه أحد ! »

إذن الأمر بهذه الخطورة ؟ ما الذى تعرفه ولا أعرفه أنا ؟

عاد (عادل) يقول :

ـ « لقد دسسنا عليهم مخبرًا .. قمنا بتزوير واحدة من تلك الدعوات وأمور معقدة أخرى .. فى النهاية دخل لهم وحضر الاجتماع الأول على أنه مدعو .. لم يقم بالتسجيل أو التصوير

لكنه تابع كل شىء ، وكان تقريره الأول والأخير هو أنها مجرد اجتماعات للعلاج النفسى الجماعى ولا غبار عليها .. »

هنا استوقفته سائلاً :

ـ « ولماذا هو آخر تقرير ؟ »

ـ « لأنه اختفى ! انقطع كل اتصال لنا به ولا نعرف أى شىء عنه .. »

ـ « وهل لهذا علاقة بهم ؟ »

ـ « أنت تعرف أن لهذا علاقة بهم .. لكن كيف تثبت ؟! »

ثم أضاف فى قلق وإرهاق :

ـ « نحن نتحرك فى الظلام .. لا نعرف أى شىء .. يسهل أن تهدم القصة كلها لو أردت .. لكن دعنى أؤكد لك إنه ما دمنا لم نستطع حماية رجلنا ، فمن الوارد أن يصيبك أذى ما .. لذا كن حذرًا وغادر دارك ! »

كان هذا أكثر مما تتحمله أعصابى ..

عندما يصير رجل الأمن المكلف بحمايتك أكثر قلقًا منك ، فأنت تشعر بالعجز والرعب .. العجز الذى يجعل الفأر المحاصر يتحول

إلى دمية بين مخالب القط .. رأيت قطًا فى طفولتى يعبث بفأر ، وأكاد أقسم أن الفأر كانت أمامه نحو عشر فرص للفرار لكنه لم يستغلها .. لم يرها ..

هكذا جمعت حاجياتى .. جمعت ما يكفينى أسبوعًا .. تناولت وجبة خفيفة ونمت ثلاث ساعات كى لا يجمعوا أشلائى بالعدسة من على الطريق السريع ..

أجريت بعض المكالمات الهاتفية كى لا يقلق علىّ أحد .. وأخبرتهم فى الكلية أننى سأتغيب أسبوعًا ، ثم أغلقت الشقة واتجهت إلى سيارتى ..

سيكون هدفى هو الإسكندرية ؛ لأننى أرغب فى أن أكون على مقربة من د. (سامى) و(عادل) ، لكن لابد أولاً من أن أمرّ على صديقى د. (مندور) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم .. لدى عدد لا بأس به من المعارف من أساتذة الجامعة ، وهذا مفيد دائمًا .. لا تنس أن (ماجى) هى نفسها تدرس الفيزياء .. لكن من العسير أن أطلب منها ما سأطلبه هنا ..

بعد ثلاث ساعات كنت أتجه إلى الإسكندرية ..

هاربًا هذه المرة من خطر داهم .. والأسوأ أننى لا أعرف ما هو !

* * *

عند الليل تقريبًا كنت قد وجدت شقة مناسبة .. لاحظ أننا لسنا فى موسم الاصطياف ..

فما أن اطمأننت إلى أن الشقة مريحة ونظيفة ، حتى قمت بالجزء الشاق من العملية .. من حقيبتى أخرجت أدوات الحلاقة ووقفت أمام مرآة الحمام ..

بيد ثابتة أزلت شاربى .. أبدو أصغر عشرة أعوام من دون هذه الفرشاة الشائبة التعسة فوق شفتى العليا .. ثم قمت بصباغة ما تبقى من شعرى ..

لو أن أحدًا رآنى لحسبنى مجرد عجوز متصاب آخر يرغب فى مغازلة فتاة .. الحقيقة لا تبتعد عن هذا كثيرًا .. أنا أرغب فى مغازلة مجموعة من الأوغاد ..

الآن أضع العوينات القاتمة القديمة المستديرة التى لم أضعها منذ عشرين عامًا .. هناك صورة قديمة جدًا لـ (طه حسين) لدى عودته من السوربون .. تبدو أقرب شىء للمظهر الذى طالعنى من المرآة .. ربما كان حل العدسات الملتصقة أسهل وأكثر قدرة على تغيير شكل وجهى ، لكنها لم تكن شائعة أو سهلة المنال فى هذا الوقت ..

أنتقى (بول اوفر) أنيقًا لا ألبسه أبدًا .. وحرصت على أن ألبس تحته قميصين لأبدو أكثر بدانة ..

فى النهاية وضعت الكاسكيت على رأسى ليدارى صلعتى ..

بدوت غريبًا جدًا فى المرآة .. مبتذلاً بعض الشىء .. هذا صحيح .. لكنى كذلك مختلف .. مختلف تمامًا ..

تكلمت بتلك اللهجة الخنفاء التى اخترتها لنفسى :

ـ « مساء الخير .. أنا .. »

ربما يصير الأمر أكثر اختلافًا لو تعمدت إخراج لسانى فى حروف السين والزاى والصاد .. إخراج اللسان مع الذال والثاء من قواعد النطق الصحيح على كل حال ..

ـ « مثـاء الخيـر يا (عثَل) .. أريـد بعض الثُّوَر للبطاقـة الشختية .. »

لا بأس .. أنت تفهـم طبعًا أننـى لا أجد حـرف (صاد) عليـه ثلاث نقاط لأعبر لك عن طريقة نطقى ..

هكذا ـ راضيًا عن مظهرى ـ نزلت إلى الشارع .. إنها مسخرة حقيقية ، فلأحمد الله على أن أيًا من معارفى لا يرانى ..

استقللت ثيارة ـ أعنى سيارة ـ أجرة طبعًا لأن سيارتى صارت من المشتبه فيهم ..

وأخيرًا طلبت من السائق أن ينزلنى هنـا .. هذا هو الشارع الذى يوجد فيه ستوديو (هالة) اللعين ..

مشـيت بضع خطـوات وسط الأضواء التى تخرق ظلام الليل ثم ...

توقفت فى ذهول ..

لم يعد هناك ستوديو (هالة) فى هذا المكان ..

بالأحرى .. لم يكن هناك أى ستوديو على الإطلاق !

* * *

5

كان يعرف أنهم أثرياء ..

رأى السيارات التى تقف هناك ورأى القوم الذين يدخلون ويخرجون ..

لم يكن لصًا .. كان يقف عند الحدود الدولية بين مملكة المتسولين وجمهورية اللصوص ، وحتى اللحظة يمكن اعتبار قدميه ما زالتا فى مملكة المتسولين .. أحيانًا يسرق أشياء تافهة مثل رغيف خبز ، أو كيس ملئ بالخضر تركته ربة بيت جوارها على الإفريز إلى أن تستوقف سيارة أجرة ..

لكنه لم يعتبر نفسه لصًا قط .. إنه جائع على الدوام .. يشعر ببرد على الدوام .. لو كان المطلوب هو أن يموت جوعًا فهو يعتذر بشدة عن هذا الشرف ..

هكذا كان (على فونية) .. اسم غريب حقًا .. لكنك فى سن الستين لا تستطيع تذكر اسمك القديم أبدًا .. طيلة عمره يدعى (فونية) والسبب هو أنه قضى فترة طويلة من عمره لا يعرف ولا يجيد شيئًا سوى تصليح مواقد الكيروسين (بوابير الجاز بالعامية) ..

فجأة كف الناس عن استعمال هذا الاختراع الساحر .. وبالتالى كف عن كسب المال .. صار الجوع يلازمه ليل نهار بعد ما أغلق المحل متسخ الجدران ، وراح يهيم على وجهه .. زوجته طردته .. هكذا لم يعد يذكر أين كان يسكن ولا عدد أطفاله ..

لم يكن (فونية) يملك أى نوع من الآراء فى الحياة .. لم يكن يملك أى نوع من الحقد الطبقى أو السخط .. لقد صار يعتبر الرأى نوعًا من الترف ..

كل ما يعرفه هو أنه جائع على الدوام .. بردان على الدوام .. وقد تحولت حياته إلى بحث طويل عن الطعام والمأوى ، فلابد أن (كارل ماركس) كان سيرقص طربًا لو أسعده الحظ بلقاء الأخ (على فونية) ..

فى هذه السن من حق الإنسان بعض الراحة وأن يعنى به أحد ، لكن (على فونية) كف عن الرثاء لنفسه منذ زمن بعيد ..

الجوع .. فقط الجوع .. حتى لم يعد يذكر إن كان هذا الألم له سبب أم أنه طريقة حياة ..

* * *

كان يعرف أنهم أثرياء ..

فى هذا النهار البارد يرى الفيلا من بعيد ، فيخطر له أن يدور حولها بحثًا عن مصدر طعام أو مأوى ..

لقد تسلل إلى هذا الشاطئ الراقى كعادته .. إنه يظفر ببعض الطعام لأن الناس يضحون بأى شىء للتخلص منه ..

كانت الفيلا موصدة الأبواب .. وكان يعرف أن أحدًا لا يتردد عليها إلا فى المساء ..

بدأ يدور حولها وقدماه تغوصان فى الرمال ، وفى يده الكيس البلاستيكى الذى يحوى (كنوزه) من الخرق وأعقاب السجائر التى يجمعها .. من بعيد يسمع هدير البحر والريح تخترق السترة العسكرية الممزقة التى لم يلبس سواها منذ عشرة أعوام ..

هذا هو السور الحديدى ..

نظر حوله ذات اليمين وذات اليسار فلما لم ير من يراقبه ، تسلق السور ليثب إلى الداخل . جهد عنيف بالنسبة لرجل فى سنه ، لكنه كف ـ كما قلنا ـ عن الرثاء للنفس ..

كلاب ! لو كانت هناك كلاب فقد ضاع ..

لكن لم يصدر نباح من أى مكان .. لذا واصل مشيه وسط النباتات المتشابكة فى الحديقة .. من الناحية الأخرى يوجد مدخل الفيلا الرئيس الذى يدخل منه الضيوف ، وهو قد تعلم من التسول أن الفيلات المماثلة يكون مطبخها مطلاً على الحديقة الخلفية .. سوف يسرق شيئًا من المطبخ أو يتسول شيئًا حسب الظروف ..

أحيانًا تكون هناك طاهية مذعورة شاحبة مثله ، تناوله شيئًا يتبلغ به .. إنها تكره سادتها مثله .. يأخذ الطعام مسرورًا ثم يفرُّ ليأكله فى أقرب زقاق يجده ..

كل الأبواب موصدة .. ربما لو طرق الباب .. لكن لا .. من يفتحون الأبواب هم غالبًا أكثر الخدم غرورًا وتحذلقًا .. ربما هم أسوأ من سادتهم ..

راح يبحث عن مدخل .. يبحث ..

فجأة وجد هذا الباب الصغير قرب مستوى الأرض .. باب من الطراز الذى يقودك لقبو .. إنه مناسب جدًّا ..

ركع على ركبتيه وأمعن النظر فلم ير شيئًا بالداخل .. رائحة كريهة جدًا .. لم يكن ممن يبالون بالروائح لأن الاشمئزاز نوع

آخر من الترف .. لكن هذه كانت كريهة بحق حتى تساءل عن مدى قذارة هؤلاء القوم ..

على كل حال كوّر جسده وانزلق من الفتحة ..

إنه الآن بالداخل وسط الظلام .. لا يوجد نور إلا البصيص الذى يأتى من الباب الصغير الموارب خلفه .. هذا قبو كما هو واضح ..

زحف قليلاً فى الظلام حتى وجد كومة من الخيش والعلب الورقية الفارغة .. إن المكان دافئ هادئ ..

كانت هناك بقايا وجبة ملفوفة فى جريدة ..

ضحك وهز رأسه فى الظلام .. إن الحظ الحسن لا يفارقه .. هذه الضحكة لم يضحكها رجل يظفر بجناح مجانى فى الشيراتون ..

كانت الوجبة تتكون من بقايا شطائر فول وفلافل .. صحيح أن الفول تحول لنوع من الأسمنت ، والطماطم المصاحبة للفلافل قد حمضت تمامًا ، لكنه قد ذاق من قبل ما هو أسوأ .. دعك من أن معدته صارت كمعدة القط الضال تهضم كل شىء ، ولا يمكن أن يمرض من شىء أكله أبدًا ..

هكذا ـ وقد زال بعض الجوع ـ استلقى على الخيش وتكور ، وغطى نفسه ببعض الخرق .. سوف ينام .. إنه ينام عشر ساعات يوميًا لأن النوم ينسيه الجوع .. لاحظ زيادة معدلات النوم لدى الصائمين ..

الظلام .. الدفء .. الهدوء ..

ونام (على فونية) ..

نام .. وفى نومه رأى نفسه شابًا قويًا يقف فى المحل ، والناس يقفون طابورًا يحمل كل منهم موقد الكيروسين له ليصلحه .. لهفة .. نقود فى الدرج ..

ـ « عم على .. البابور ده بينفس .. »

ـ « عم على .. الكباس تقيل .. »

ألا فلتحلّ لعنة الله بمواقد البوتاجاز والمواقد الكهربية ، وكل شىء جعل الناس ينسون موقد الكيروسين الجميل ذا الرائحة العطرة والصوت الشجى ..

ألا فلتـ ..

* * *

صحا من نومه على يد رقيقة .. يد رقيقة لكنها تهزه بعنف بالغ ..

(هذا الصوت القادم من بعيد .. كأنها ضحكات)

فتح عينه واستغرق عدة أشهر كى يفهم أين هو ومن هو ..

فى ضوء مصباح كهربى خافت معلق فى سقف القبو ، يرى تلك الفتاة تنحنى عليه وتهزه .. فتاة نحيلة سمراء لها وجه مريح لكنه مذعور ..

(لا . ليست ضحكات .. هو يذكر أيام الجيش فى الصحراء .. كأن هذه ضحكات الضباع !)

قالت له وهى مستمرة فى هزه :

ـ « يا لك من تعس ! من أين جئت ؟ ألم تجد مكانًا سوى هذا ؟ »

نظر لها فى غير فهم ، فقالت :

ـ « تعال ! من رابع المستحيلات أن أتمكن من إخراجك فى هذه الساعة .. إنهم عائدون فى أية لحظة !! .. »

وجد أنها تجرّه من يده عبر القبو الرطب ، حيث لا توجد إلا صناديق فارغة وزجاجات مهشمة .. ثم انتقت ركنًا غائصًا فى الجدار .. وألقت به داخله إلقاء ، وقالت له :

ـ « مهما حدث لا تتحرك ! »

ووجد أنها تلقى فوقه بقطع من الخيش وصناديق ورق مقوى فارغة .. حتى تمكنت من إخفائه تمامًا عن العيون ، والحقيقة إنه كان مذعورًا فلم يحاول فهم أى شىء ..

فقط راح يرتجف ..

أن الجوع يفقد الإنسان الكثير من آدميته .. ولهذا راح يتعامل مع الموقف كحيوان مذعور لا يهمه أن يسمع تفسيرًا .. المهم إنه مذعور لأن خطرًا داهمًا يحيط به ..

ثم بدأ يسمع أصواتهم ..

* * *

6

فى فى فو فام ..

أشمَ دماء رجل إنجليزى ..

سواء كان حيًا أو ميتًا ، فلسوف أحمّص عظامه لأصنع خبزى !

* * *

شىء فى هذه الأصوات جعل الدم يتجمد فى عروقه ..

كانت أقرب إلى زئير الوحوش لكنها برغم هذا لم تتخل عن آدميتها .. هذا هو ما أثار رعبه أكثر من أى شىء آخر ..

يسمعهم يتزاحمون ويقدر أن عددهم نحو الخمسة ..

ـ « أنا جائع .. »

ـ « وأنا .. »

صوت رجل وقور يبدو على قدر كبير من السُلطة يقول :

ـ « أنتم لم تأتوا لى بشىء أمس .. لهذا يجب أن تتحملوا نتيجة التقصير .. »

من جديد يتصاعد الزئير والاحتجاج :

ـ « لابد من شىء .. لابد من شىء نأكله ! »

ثم سمع أحدهم يتشمّم الجو .. سنيف سنيف .. ثم يقول فى لهجة انتصار :

ـ « هناك رائحة رجل هنا ! »

تصاعدت الصيحات :

ـ « من ؟.. من ؟ »

كان (على فونية) يرتجف الآن كورقة .. ثم صوت الرجل المسيطر يقول :

ـ « كفوا عن السخف .. أنتم تعرفون أن تلك الفتاة (غادة) ما زالت منهم .. أنا أقرب لهم .. روائح البشر فى كل مكان فلا تتظاهروا بالذكاء .. »

تعالت أصوات الاحتجاج .. مع صوت (سنيف ـ سنيف !) .. ثم صاح صائح :

ـ « لكنى أشم الرائحة بقوة ! هلموا نفتش القبو جيدًا ! »

وتعالت أصوات حركة عنيفة .. هناك من يرفع أشياء ويحرك أشياء .. هناك من يبحث .. وأيقن (على فونية) أن حياته التعسة قد انتهت ..

لكن الإنقاذ جاء من حيث لا يدرى ..

لقد سمع أحدهم يصيح :

ـ « لقد عاد (موهول) .. مرحى ! »

ومن جديد صوت الصخب .. هذه المرة يتعالى صوت غريب .. صوت هو أقرب شىء إلى القضم .. صوت أشياء تمزق وعظام تطحن .. ما معنى هذا ؟ ماذا يدور هنا ؟ لم يكن (على) قد صلى منذ دهور ، لكنه راح يدعو الله أن يخرج من هذا المأزق بأى شكل ..

هناك من يأكل فى نهم .. هناك من يتنازع مع صاحبه على الطعام كما يحدث بين السباع فى حديقة الحيوان .. صوت زئير ..

ـ « ابتعد يا (موهول) ! »

ـ « بل ابتعد أنت يا (موهول) ! »

الغريب أنهم جميعًا يحملون الاسم ذاته .. فكيف يعرفون بعضهم ؟ لابد أنهم يعتمدون على من يوجه له الكلام .. شىء من هذا القبيل .. فما جدوى الأسماء إذن ؟

كانت أمام عينيه قطعة من الورق المقوى فأزاحها فى رفق ..

ثم تذكر أن هذه بالذات هى عينه التالفة ؛ لذا حرك وجهه ليراقب المشهد بعينه الأخرى ووسط غابة من ألياف الخيش ..

ما استطاع أن يراه وسط الفجوة هو ظهر عملاق لرجل .. رجل ضخم يجلس القرفصاء على بعد مترين .. قميص الرجل ممزق وطريقة التهامه للطعام أقرب للوحوش ..

كان الرجل يأكل ثم يلتفت للخلف من فينة لأخرى ليرمق الفتحة .. يرمقها بنظرة ثابتة حتى ليقسم (على) على أنه ينظر له بالذات .. ثم يعود الرجل لشأنه فيقتنع (على) نفسه أن الرجل لم يره .. لا يوجد سبب يجعله يراه ويتظاهر بالعكس ..

ثم فعلها الأحمق !

لقد نظر إلى الشىء الذى فى يد هذا العملاق الجالس ..

كانت هذه غلطة عمره .. ومن رحمة الله أنه أطلق أنينًا خافتًا لم يسمعه سواه ثم فقد الوعى ..

* * *

فى فى فو فام ..

أشم دماء رجل إنجليزى ..

سـواء كـان حيًا أو ميتًـا ، فلسـوف أحمّص عظامـه لأصنـع خبزى !

* * *

لا يدرى إلا ونور النهار يتسلل بشكل ما داخل المكان .. ومن جديد أنامل الفتاة السمراء تدق على كتفه ..

- « هيا يا أحمق ! هل نمت ؟ كيف نمت ؟ كيف استطعت ؟ »

استطاع أن يربط بين هذه المنقذة الرقيقة واسم (غادة) الذى سمعه أمس .. الحقيقة أن كل تفاصيل ما حدث أمس حفرت فى ذهنه للأبد ..

راحت تصفع خده فى غلظة كأنها تضرب حيوانًا ..

- « هلم .. استيقظ ! لا وقت للنوم ! »

ثم هى تجره جرًا إلى حيث كـان الباب الصغير الذى دخل منـه .. إنه ينظر للخلف لـيرى القبو مـن خلفهـا لكنـه لا يرى أى شىء بسبب الظلام .. ربما كان هذا كابوسًا ؟

الفتاة تعينه على تسلق حافة الباب ليخرج وتردد بلا انقطاع :

- « هلم ! اخرج ! لا تعد هنا ثانية أبدًا ! »

لم يكن بحاجة إلى أية تعليمات وهو يتواثب فى خفة عبر الحديقة .. خفة لا تتناسب مع سنواته الستين .. وكـان الفزع يستبد بعقله ويوشك على أن يوقف ضربات قلبه .. رعب أولى عجيب لم يشعر به من قبل ..

يسمعها تصيح :

- « لا تحك ما رأيت فلن يصدقك أحد !! »

نور الشمس يغمر المكان ويبدد مخاوفه ..

يصل إلى البوابة فيتسلقها .. ينزلق ويسقط .. لكنه يحاول من جديد .. ينجح هذه المرة .. يعتلى السـور .. ثـم يهـوى كـل المسافة من أعلى السور إلى الشارع ..

آى !!

عندما نظر إلى ساقه أدرك أنها لم تعد كما كانت ..

لقد تهشمت .. ..

* * *

7

من جديد نهضت مدام (ثريا) إلى الباب فأغلقته ..

كانت قد انتهت كالعادة من سؤالى عن الكارثة التى حلّت بشاربى ووجهى وشعرى .. لابد أنها حسبتنى جننت أنا الآخر ..

سألتها فى حيرة :

ـ « قلت إنه ليس موجودًا فى البيت .. »

وضعت إصبعها أمام شفتيها لتخفض الصوت ، ثم قالت فى خطورة :

ـ « يعود فى أى وقت .. والغريب أنه يتحرك بلا صوت .. لا أعرف كيف أصف .. كيف أعبر .. »

وارتجفت شفتها السفلية ، وقالت :

ـ « ثمة شىء ما يخيفنى فى هذه الخفة التى صار يتحرك بها .. ثمة شىء غير بشرى .. شىء حيوانى .. »

هنا دخلت الخادمة المتأنقة الغرفة لتسألنى عما أشربه ، فطلبت قهوة .. فى الفترة الأخيرة أفرطت فى شرب القهوة حتى أن نزف المخ وسرطان البنكرياس يتسابقان أيهما يستحقنى أكثر ..

كادت الخادمة تنصرف لولا أن استوقفتها المدام :

ـ « سارة .. »

ـ « A votre service madam .. »

ـ « قولى لـ د. (رفعت) ما يقوم به د. (سامى) فى الآونة الأخيرة .. »

نظرت لى (سارة) فى برود غير متأكدة مما إذا كان يجب أن تتكلم .. ثم هزت رأسها ، وقالت :

ـ « إنه لم يعد هو يا مدام .. »

قالت مدام (ثريا) فى عصبية :

ـ « نعم .. نعم .. أريد تفاصيل .. »

فكرت (سارة) قليلاً ، ثم قالت :

ـ « مثلاً كل هذا الصمت .. لقد فقد مرحه تمامًا .. لا يخرج إلا ويقول إنه ذاهب لتلك الجمعية ، ثم يعود فيغلق المكتب على نفسه .. »

ـ « والخروج الليلى .. »

ـ « أوه .. هذا يحدث ثلاث مرات أسبوعيًا .. يخرج فى صمت وهدوء فى الثالثة بعد منتصف الليل .. أنا من الطراز الذى لا ينام بسهولة ؛ لذا أشعر بباب الشقة ينفتح وينغلق .. »

طبعًا .. هى الآن شقة ولو كان هذا فى الفيلا القديمة ، لأمكن أن يتسلل الجيش الرومانى ليلاً دون أن يشعر به أحد ..

سألتها مدام (ثريا) :

ـ « وماذا عن موضوع الثلاجة ؟ »

ـ « أحيانًا أدخل المطبخ لأجده قد أخرج كيسًا يحوى بعض اللحم المجمد من الثلاجة ، ووقف يتأمله .. يتأمله شارد الذهن كأنه بصدد خيار مصيرى .. »

قالت مدام (ثريا) فى حماسة :

ـ « هذا يحدث مع رجل لم يكن مولعًا باللحوم قط فى طعامه .. اعتاد أن يعتبر تطور الإنسان يتناسب مع الخلاص من هذه العادة .. بالنسبة له يُعتبر النباتيون أرقى أنواع البشر .. لكن هذا انتهى .. إنه فعلاً صار شرهًا للحوم بشكل غير معتاد .. »

ثم أضافت فى تقزُّز :

ـ « يأكل اللحم فى شراهة كأنه .. كأنه غول ! »

سوف يفيد هذا الرجل أن يتغيب عن تلك الجمعية بعض الوقت ، لكن كيف ؟ يمكن دائمًا أن تحاول كسر قدمه ، لكنها طريقة عنيفة لا أوصى بها .. ربما احتاج الأمر إلى تكبيله .. لا أدرى بالضبط ..

أضافت مدام (ثريا) فى غيظ لم أفهم سببه :

ـ « أكملى قصتك ! قولى ما حكيته لى اليوم ونحن فى المطبخ .. »

قالت (سارة) وهى تسوى خصلات شعرها وتضحك فى شىء من الميوعة :

ـ « يقول إننى حسناء ! هئ هىء ! .. »

آه ! إذن صار د. (سامى) الراقى من هؤلاء ؟ لا مشكلة لأن الفتاة حسناء فعلاً ، لكن لماذا يقول لها ذلك ؟

قالت (سارة) مفسرة :

ـ « يريد أن أذهب لستوديو معين كى يلتقطوا لى بعض الصور .. هئ هىء ! يقول إنهم فنانون وإنه يعرف مخرجين كثيرين يمكن أن يكتشفونى .. »

فى حزم قالت مدام (ثريا) :

ـ « هل رأيت ما وصلنا إليه ؟ وأنت ! كفى عن الميوعة ولا تتمايلى كالثعبان .. إن د. (رفعت) قد طلب قهوة ولم يطلب فقرة من الرقص الإيقاعى .. »

استوقفتها بإشارة من يدى ، وقلت :

ـ « لحظة .. ليس الأمر كما تعتقدين .. متى طلب منك هذا يا (سارة) ؟ »

- « أمس .. وقد أعطانى عنوان الستوديو فى (سابا باشا) !! »

- « إذن أنا أريده حالاً ! »

فلما انصرفت ، مطّت مدام (ثريا) شفتها السفلى فى اشمئزاز ، وقالت :

- « الرجال !! هذه المراهقة المتأخرة لا تفسير لها .. زوجى يغازل الخادمة ! »

قلت لها فى كياسة وحذر :

- « على قدر علمى عدد لا بأس به من الرجال المتزوجين يغازلون الخادمات (لاحظى أننى غير متزوج وليست عندى خادمة كذلك) .. أعتقد أنها بقايا نفسية لدى الرجل من عصور الجوارى ، لكن فيما يخص زوجك ثقى أنه لا غبار عليه .. لم يكن يريد منها إلا ما طلبه : أن تلتقط لنفسها صورًا فى ستوديو معين .. هذا هو ما يهمه ، وهو مستعد لأن يخدع أى شخص فى العالم كى يتم هذا .. أعتقد أنه سيطلب الشىء ذاته منك قريبًا .. »

- « وما الموجود فى هذا الستوديو ؟ »

- « هذا هو السؤال الذى يساوى مليونًا من الجنيهات .. »

جاءت القهوة بعد قليل ومعها قصاصة فيها عنوان الستوديو .. الستوديو الذى انتقل إلى (سابا باشا) بمعجزة ما ..

قلت للمدام وأنا أشير للهاتف :

- « هل لى أن أجرى مكالمة ؟ »

- « من فضلك أن تفعل .. »

رفعت السماعة وطلبت رقم (عادل) .. هو لا يعرف أننى فى الإسكندرية ، ولربما يحسبنى فى (كفر بدر) منذ زمن ..

- « آلو .. (عادل) .. نعم .. أنا فى الإسكندرية ..هناك بعض المواضيع التى .. »

هنا جاء صوته المتحمس يصيح :

- « لن تكون بأهمية مواضيعى .. هناك خيط مهم فى القصة .. حاول أن تلحق بى فى المستشفى الجامعى بعد ساعة .. ستكون هناك عربة شرطة واقفة عند المدخل الرئيس ، وسوف يقودونك لمكتبى .. »

هكذا وضعت السماعة غير عالم ما ينتظرنى ..

* * *

قال د. (خليفة) وهو ممتقع الوجه بسبب كل هذه الرتَب المحيطة به :

- « لا يوجد ما يُقال .. إنهم يطلقون عليها (متلازمة ما بعد الصدمة) .. »

ثم ابتلع ريقه .. كل هذه الضوضاء بسبب متسول مسن كسر ساقه ؟

نظر (عادل) إلى الرجل الراقد فى الفراش والذى عرفنا أن اسمه (على فونية) .. وقال :

ـ « إذن لا يمكن أن تثق فيما يقول ؟ »

قال د. (خليفة) :

ـ « لا أستطيع تقديم إجابة .. ربما هو يقول الحقيقة .. غالبًا ما يقوله هو الذى سبب الصدمة .. »

كان (عادل) قد فرغ من السخرية من مظهرى ، وأبدى كل الملاحظات السخيفة على شاربى وعويناتى وصبغة شعرى .. لهذا بدا مستعدًا للتركيز فيما يسمع ..

كانت ساق (على فونية) فى الجبس .. بينما ربطوه فى الفراش كأنه مصلوب ، والسبب هو منعه من الفرار .. لقد حاول ذلك عشر مرات منذ وجدوه يزحف على الأرض ويصرخ فى مكان ما من العجمى ، حتى حملوه إلى المستشفى الجامعى .. لقد شعر الأطباء بأن هناك شيئًا مريبًا فى القصة .. أبلغوا الشرطة .. وبشكل ما انتفشت كرة الثلج حتى بلغت مسمع (عادل) .. (عادل) الذى كان على استعداد لسماع أى خبر غريب عن فيلا فى العجمى ..

ـ « اسمه (على فونية) فعلاً ؟ »

ـ « لا يعرف لنفسه اسمًا آخر .. إنها المهنة عندما تتحول إلى لقب .. هناك دائمًا (سيد فورمايكا) و(أسامة دوكو) و(حسن أسطر) .. »

ثم إن (عادل) دنا من الرجل رثّ الثياب الذى تنمُّ ملامحه عن سوء تغذية ، وبصوت هادئ سأله :

ـ « ما هذا الذى كنت تقوله ؟ كلام عن فيلا فى العجمى تعيش فيها الوحوش ؟ »

هنا صرخ الرجل فى هستيريا .. وراح يحاول التملُّص من قيوده :

ـ « إنهم ملاعين ! ساعدونى ! أنا رأيتهم ورأيت ما يفعلون ! كسرت ساقى لكنى زحفت نصف ساعة كى أبتعد عنهم .. هى قالت لى ذلك .. ساعدونى ! أنا رأيتهم ورأيت ما يفعلون ! كسرت ساقى لكنى زحفت نصف ساعة كى أبتعد عنهم .. هى قالت لى ذلك .. ساعدونى .. ! »

هكذا تحول إلى أسطوانة مشروخة ..

انحنيت عليه وحاولت تهدئته وسألته :

ـ « من هم ؟ »

نظر لى للحظة وشاعت ابتسامة دافئة على وجهه ، حتى آمنت بتأثيرى السحرى .. وفجأة صرخ من جديد :

ـ « إنهم .. إنهم غيلان !!! »

ثم راح يبكى بكاء يقطع نياط القلب ، فأمر الطبيب الممرضة أن تحقن الرجل ببعض (الديازيبام) وهو ما لم يرق لى فى سنه هذه .. سوف يقضى يومين على الأقل فى حالة Hang over عاجزًا عن فهم ما يدور حوله ، واللعاب يسيل من شدقيه .. هكذا الشيوخ عندما يتعاطون المهدئات ..

قال د. (خليفة) فى لهجة لائمة :

ـ « هل لديك اقتراح أفضل قبل أن يجنّ ؟ »

ـ « بالواقع لا .. على الأقل أعطه نصف الجرعة .. »

وعلى باب العنبر وقف (عادل) يفكر فى عمق .. قلت له فى عصبية :

ـ « إذا كنت لم تجد بعد المبررات الكافية لاستخراج إذن تفتيش ؛ فإننى سأبدأ غدًا الاتجار بالمخدرات .. يبدو أن الأعمال غير القانونية والمريبة مسموح بها هنا.. »

قال وهو يشعل لفافة تبغ برغم أننا لم نغادر العنبر تمامًا :

ـ « المشكلة هى : إلى أى حد يمكن استخلاص معلومات دقيقة من هذا المتسول شبه المجنون ؟ وهل أنت واثق من أنها نفس الفيلا ؟ »

ـ « أنت تعرف كما أعرف أن كلامه دقيق .. وأنها نفس الفيلا .. »

ثم أضفت فى حنق :

ـ « للمرة الثانية أسمع لفظة الغول هذه .. مدام ثريا تصف زوجها بأنه يأكل كالغيلان .. الرجل يتحدث عن غيلان .. إنى لأتساءل .. هل هذه مجازات ؟ »

سألنى (عادل) :

ـ « ما معنى كلمة غول أصلاً ؟ إنها كناية عن أى شخص متوحش لا أكثر .. »

قلت :

ـ « فى القاموس الغول هو الشخص الذى يجد سعادته فيما هو مثير للاشمئزاز أو مرضى أو كريه .. الغول هو سارق القبور ونابشها .. الغول هو روح شريرة أو شيطان يأكل الموتى .. »

نظر لى فى دهشة كأنما يسمع معلومة ما لأول مرة ، وقال :

ـ « نبش القبور .. الغيلان .. ذكرتنى .. هناك حاليًا وباء من نبش القبور وسرقة الجثث يجتاح الإسكندرية .. لدينا عدة بلاغات عن الموضوع .. لكن أعتقد أنه لا علاقة له بقصتنا هذه وإنما الشىء بالشىء يذكر .. »

ثم نظر لساعته ، وقال فى حزم :

ـ « حان الوقت كى نطلب إذن النيابة .. سأوصلك لبيتك هنا ثم نبدأ الإجراءات .. و(ربنا يستر) .. إما أن أنال ترقية أو أجد نفسى قد صرت أضحوكة الوزارة .. »

ثم أضاف وقد تذكر شيئًا :

ـ « أعد تربية شاربك .. تبدو لى كمراهق أخرق فى الخمسين من عمره .. مراهق أصلع مصاب بالربو وضيق الشرايين التاجية .. صدقنى .. »

* * *

8

قلت لسائق سيارة الأجرة :

ـ « هنا لو سمحت .. »

لم أعد قادرًا على استعمال السيارة .. هى مميزة جدًا بشكلها ، ثم إن مقدمتها المهشمة تزيل أية شكوك حول صاحبها ..

مشيت بضع خطوات فى (سابا باشا) وأنا أنظر إلى القصاصة التى كتبتها الخادمة لى .. بالفعل .. هذا هو (ستوديو هالة) يقف هناك كأن شيئًا لم يكن .. تذكرت قصة متجر العجائب لـ (هـ .ج. ويلز) عندما كان هناك متجر ألعاب سحرية فى طريقه لبيته ، يظهر أو لا يظهر حسب الظروف .. هنا ما هو أظرف : ستوديو يتحرك .. يملُّ المكان فيمشى فى الإسكندرية باحثًا عن مكان آخر!

السؤال هنا : هل يراه الجميع أم يراه فقط الباحث عن ستوديو ؟ لو كان الجميع يرونه فما موقف مجلس المدينة والسجل التجارى والضرائب من هذا الستوديو الذى يظهر حيثما أراد ؟ أم إنه يوجد ويوجد لنفسه ماضيًا وأوراقًا ووجودًا حكوميًا معترفًا به ؟

إن (المتجر العجيب) له دور بارز فى الأدب العالمى .. فى قصة ستيفن كنج (أشياء مشتهاة) كان صاحب المحل يحقق أكثر رغباتك الداخلية غرابة وسرية ، ولكن مقابل خدمة تسبب مشكلة ما .. السبب طبعًا أن صاحب المتجر كان هو الشيطان !

لكن هذا ليس متجرًا .. مجرد ستوديو تصوير يصور هالات (كيرليان) !

هذا مطمئن!

* * *

عندما دخلت المحل كان (محفوظ) هناك ، وكان يطالع جريدته الدائمة ..

هذا هو الامتحان الأهم لشكلى .. هنا أصابنى الرعب .. كل من رأونى اندهشوا لغرابة مظهرى لكنهم عرفونى برغم كل شىء ! إذن ربما كان هذا التنكر لا يخدع أحدًا ..

على كل حال صار التراجع مستحيلاً ..

رفع الرجل رأسه نحوى فأدركت أننى نجحت على الأرجح .. وافتعلت اللهجة التى تدرّبت عليها عدة ساعات :

ـ « أريد ثورة للبطاقة الشخثية .. »

أشار إلى غرفة التصوير بالداخل وطوى الجريدة ..

هكذا بدأت الطقوس المعتادة .. الغرفة ذات المرآة .. ربما كانت هذه المرآة غير مسقية من الجانب الآخر وكان هناك من يراقبون العميل ؟ ربما ..

الكاميرا غريبة الشكل .. ثم الاستفزاز .. دائمًا الاستفزاز :

ـ « لا أعرف سبب ذلك ، لكنك تبدو لى رقيعًا ! »

لم أنفعل ولم أثر لأنى فهمت أن هذا جزء من العملية .. يبدو أن هالات (كيرليان) المطلوبة لا تنبعث إلا لدى شخص غاضب .. لكننى تظاهرت بالغضب :

ـ « لابد أنك مخبول كى تكلمنى بهذه الطريقة ! »

من جديد الاعتذار التقليدى (لأنه لا يشعر بنفسه عندما يعمل) ثم الصورة الطبيعية بكاميرا حقيقية ..

الانتظار فى المحل حتى يعود لى .. ثم الموعد غدًا ..

ـ « اسمك وعنوانك ورقم الهاتف لو سمحت .. »

ـ « هل هناك سبب لذلك ؟ »

ـ « هناك الكثير من الخلط يحدث بسبب أن فلانًا يأخذ الصور الخاصة بفلان .. لذا نحرص على هذا النظام .. »

كنت قد استعددت لهذا الجزء .. الاسم هو (عزت المنياوى) طبعًا .. رقم الهاتف هو رقم شركة الكهرباء .. العنوان هو عنوان تلك البناية فى الإسكندرية التى اتفقت مع بوابها على أن يتسلم أية خطابات تصل باسمى .. هو متشكك فظ لا يسمح للغرباء بالصعود ويشكُ فى كل واحد .. هكذا لن يجد من يحضر الخطاب أو ساعى البريد مفرًا من ترك الخطاب معه .. طبعًا عقدت صفقة مع البواب على أن أدفع له راتبًا كل ثلاثة أيام مقابل هذه

الخدمة .. لا أريد أن أحرق عنوانى الجديد فى الإسكندرية هذه المرة .. لابد من مكان أستطيع العودة له أو الاختباء فيه متى أردت ..

بالطبع كان (عادل) قادرًا على حل مشكلة كهذه بدلاً من الأساليب الملتوية ، لكننى لا أريد أن أزيد مشاكله تعقيدًا .. دعك من أنه لم يبد أى اهتمام بموضوع الستوديو هذا .. شعر بأنها هلوسة من هلاوسى المعتادة لا أكثر ..

قال لى الرجل :

ـ « أخبر أصدقاءك عن ستوديو (هالة) .. نحن نحاول كسب الزبون الذى أضاعه الآخرون.. »

وابتسم لى السيد (محفوظ) ابتسامة دافئة ، بينما غادرت المكان وأنا أشعر بنظراته ثابتة على قذالى .. أدعو الله ألا أكون مميزًا لهذه الدرجة من الخلف ..

لسبب ما يثير هذا الرجل فى نفسى كل المخاوف الكامنة من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم ..

أعرف ما سيحدث .. سيحتفظ بهذه الابتسامة الدافئة بضع ثوان ، ثم ينقلب تعبير وجهه فجأة ليبدو متوحشًا ، ويهرع إلى الداخل ليقوم بشىء ما ..

هذه هى القاعدة ..

* * *

9

عندما زرت (على فونية) فى المستشفى من جديد ، لم يكن مقيدًا فى الفراش .. كان فى عنبر مزدحم من العنابر المجانية الفاخرة إياها .. فئران .. مواقد كيروسين .. سلال .. أطفال يقضون حاجتهم جوار الفراش .. حتى بائع العرقسوس كان موجودًا يقرع الصنجات مناديًا بضاعته. وكانت جوار (على) على الفراش ورقة جريدة بها أصناف شتى من الطعام .. فول .. فلافل .. محشو .. بقايا دجاج .. موز .. أرز مختلط بالفول؛ فأدركت أنه عاد يمارس عمله الأصلى بنشاط ..

ـ « بسم الله .. »

فهززت رأسى شاكرًا ..

هكذا راح يحكى لى القصة بالتفصيل ، وعرفت منه ما حكيته لك .. لقد حفرت القصة فى وجدانه بالتفاصيل ، لأننى لم أعتد هذه الدقة السردية لدى من هم فى طبقته .. لكنه لم يقل قط ماذا كان هؤلاء فى القبو يأكلون .. لقد فقد وعيه عند هذه اللحظة ، أو لعله نوع من فقدان الذاكرة الهستيرى الذى يمحو جزءًا بعينه من ذكرياتك .. جزءًا لا يجسر عقلك الواعى على تحمله .. المرأة ترى السيارة تدهم ابنها فتتنكر كل شىء قبل وبعد لحظة الدهم هذه ، وتنسى المشهد نفسه .. الفتاة ترى خطيبها يجلس على النيل مع أختها يتهامسان وفى يد كل

منهما وردة حمراء .. عندما تعود لدارها لا تذكر إلا أنها خرجت تمشى على النيل .. ماذا حدث بعد ذلك ؟ لا تذكر ..

ما الذى رآه حقًا ؟ يمكن أن أتخيل .. أكره أن أتخيل ..

بشكل ما تتماثل هذه القصة مع القصص الشعبى الغربى ، كما وصفه (كراب) : البطل يأتى إلى مسكن الغول أثناء غيابه .. تقوم امرأة عطوف بإخفاء البطل وتكون أمّ المارد أو جدّته أو مديرة منزله أو أسيرة عنده .. فإذا عاد المارد إلى البيت كانت كلماته هى : « فى فى فو فام .. إننى أشم دماء رجل إنجليزى .. سواء كان حيًا أو ميتًا ، فلسوف أحمّص عظامه لأصنع خبزى ! »

هذه الكلمات خالدة لدرجة أنها من أغانى المهد Lullaby الشهيرة لدى أطفال الغرب !

يقال إن هذه الجزئية من القصة تعود لعصور التوحش عندما كانت ملكة الشم أقوى مما هى عليه لدى سكان المدن الحديثة .. من المثير دومًا أن يدخل المارد كهفه فيشم رائحة بشر .. هذا يضاعف لهفة الترقب والانتظار ..

ما حدث لهذا الرجل هو تكرار حرفى للقصة .. وكل شىء يدل على أن الفتاة التى أنقذته هى ذاتها من تدعى (غادة) .. هل هى ذات سكرتيرة الجمعية التى سمعت اسمها من د. (سامى) ؟

على كل حال قد عرفت الكثير ، لهذا شكرت الرجل وتركت له حفنة من الأوراق المالية على نفس الجريدة .. فقط آمل ألا يأكلها باعتبارها نوعًا من الطعام ..

* * *

فيما بعد عرفت من (عادل) قصته مع ذلك البيت ..

لقد ذهب إلى هناك مع سيارتى شرطة معبأتين بالجنود .. وتقدم الموكب بسيارة المديرية وخلفها سيارة دورية .. كان يستعرض هيبةَ الدولةَ كى يثير الرعب فى قلوب هؤلاء ..

فتح له الخادم الباب ثم ظهر من عرفوا أنه (جمال أبو غصية) المستشار القانونى للجمعية ومعه (عدنان شوقى) ..

(جمال) ـ كما وصفه ـ وسيم أنيق يصلح ممثل سينما ، أما (عدنان) فرجل مهيب فارع الطول له عينان عميقتان قويتان ..

طلب (جمال) إذن التفتيش وتفحصه بعناية ثم سمح لهم بالدخول ..

الانطباع الذى حصل عليه (عادل) هو أنهم هادئون جدًا ، ويبدو أنهم كانوا يتوقعون هذه الزيارة .. فى الداخل هناك فيلا عادية بها أجزاء مخصصة للسكنى (وماذا عن القبو ؟) .. لكن القسم الأكبر منها يبدو كأنك انتقلت لمصلحة حكومية .. سكرتارية .. ملفات ..

(غادة) سكرتيرة تعنى بهذا الكم الهائل من الأوراق التى تحتاج لها الشئون الاجتماعية .. (وماذا عن القبو ؟) .. محاضر جلسات .. جمعية عمومية .. جدول أعمال .. إلخ .. المحاسب (عدنان) يتولى الجزء المالى من الموضوع ، ويقول إنهم يتلقون بعض التبرعات (وماذا عن القبو ؟) ..

كل هذا الكلام الفارغ لم يهم (عادل) فى شىء .. ما اهتم به هو قاعة الاجتماعات الواسعة .. هناك قابل د. (عامر) .. له ذات الطابع المسيطر الموحى بالثقة .. رجل فى الخمسين من العمر يبدو أنه رأى العالم فعلاً ، ولديه شهادات من عدة جامعات أقلها (كامبردج) ..

قال له د. (عامر) باسمًا :

ـ « مهمتنا هى اكتشاف القدرات التى لا يعرف أصحابها شيئًا عنها .. لو أنك بحثت فى جيب البذلة جيدًا فلربما تجد مليون جنيه لكنك لا تعرف .. نحن نعينك على العثور على هذا المليون ! »

قال له (عادل) ضاحكًا :

ـ « زوجتى تتولى هذه المهمة يوميًا وثق أنها لا تجد أى شىء ذى بال .. دعك من أنه من المستحيل وضع مليون جنيه فى جيب بذلة .. »

ـ « فقط أقرّب لك المثل .. ربما كنت تحمل فى أعماقك قائدًا عسكريًا محبطًا يرغب فى التحرر .. أستاذ جراحة مخ وأعصاب .. ربما كنت داعية دينيًا عظيم الشأن ولا تعرف هذا .. ربما أنت موسيقار لم يجد من يصغى له .. »

هنا قاطعت (عادل) صائحًا :

ـ « والقبو ؟ »

حكى لى (عادل) أن رجاله كانوا يفتشون الفيلا بحثًا عن أى شىء مريب .. لا يوجد .. (وماذا عن القبو ؟) .. القبو نفسه عبارة عن قبو .. لا أكثر ولا أقل .. صناديق فارغة .. زجاجات مهشمة .. ثياب عمرها قرون .. لا يوجد أى شىء مريب ..

ثم أضاف وهو يتنهد :

ـ « لا غبار على هؤلاء القوم .. أغبياء ومخابيل ومغفلون .. صحيح أن القانون لا يحمى المغفلين لكنه كذلك لا يأمر باعتقالهم .. »

ـ « يا سلام ! وماذا عن مخبرك الذى اختفى ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكننا سنجده أو نجد جثته .. لا علاقة لاختفائه بهؤلاء القوم .. »

ثم أضاف وهو ينصرف :

ـ « لا تنس أن تطيل شاربك وتعيد شعرك لحالته .. تبدو مثل مومياء رمسيس الثانى لو لبست الكاسكيت .. »

عندما فكرت فى الأمر وجدت أن ما لدى قوى جدًا لكنه لا يقنع أية جهة رسمية .. تغيرات فى شخصية د. (سامى) .. ستوديو يمارس تصوير (كيرليان) لانتقاء أعضاء الجمعية .. لص حاول التسلل لغرفتى فى البنسيون .. رجلان سألا عنى فى القاهرة .. قصة غريبة من متسول عجوز ..

فى الواقع ليس لدى أى شىء ذى أهمية ..

(عادل) قد نفض يده من القصة .. وعلىّ أن أتصرف وحدى ..

* * *

مررت على عم (عزت) البواب الذى تعهد بأن يتسلم مراسلاتى ، باعتبارى من سكان تلك البناية ..

كان جالسًا كالسباع أمام باب البناية وهو يصرخ مهددًا بعض الصبية الذين يلعبون الكرة .. مع رجل كهذا لن يستطيع الشيطان ذاته الدخول للتأكد مما إذا كنت من سكان البناية أم لا .. لسبب ما يعتبر هذا الرجل نفسه يحرس قاعدة نووية ..

فما أن رآنى حتى التمعت أسنانه الذهبية فى ذكاء ، ومد يده فى جيب الصديرى تحت الجلباب ليخرج لى مغلفًا أعرف شكله جيدًا ..

قال لى :

ـ « أصرّ الرجل على الصعود ليوصله لك ، لكنى أصررت على أن هذا مستحيل .. ها هو ذا .. »

ـ « وكيف كان يبدو الرجل ؟ »

ـ « لم ألحظ هذا يا أستاذ (عزت) .. »

ـ « أسمر اللون ضخم الجثة .. يلبس نظارة سوداء ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

هذا هو عهدى بعامة الناس .. أسئلة بسيطة كهذه وبرغم هذا لا يجيبون عنها .. كان الله فى عون رجل الشرطة الذى يحقق فى أية جريمة .. أذكر أن هناك جريمة قتل بشعة حدثت فى الثمانينيات ، ونشرت الصحف صور مرتكبيها حسب وصف الشهود لرسام الشرطة .. كانوا مجموعة من الأجانب شُقر الشعور متهدليها على الكتفين كأنهم فريق (بينك فلويد) .. العيون ملونة .. أحدهم أعور .. خلاصة ما استنتجه البوليس ـ ومعهم حق ـ أن هناك مجموعة إرهابية أجنبية تسللت لمصر .. بعد القبض على القتلة رأينا صورهم فإذا هم سُمر الوجوه كثو الشوارب .. لا أحد بينهم أعور .. شعرهم خشن مجعد قصير لأنهم جاءوا من أعماق الصعيد طلبًا للثأر!

أخذت المغلف وفتحته فوجدت ما توقعته :

* * *

الأستاذ عزت المنياوى :

يتشرف المحاسب (عدنان شوقى) بدعوتكم للحضور إلى مقر جمعية الباحثين عن الحقيقة ، وهى جمعية غير حكومية لا تهدف للربح ، وتضم المهتمين بفهم أنفسهم أكثر ، وقد اخترنا أفرادها بناء على ما توسمناه فيهم من مكانة اجتماعية وثقافة عالية ، وخلفية أكاديمية مرموقة . وقد وجدنا أن هذه الصفات تنطبق عليكم بشدة ..

سوف تجدون ما يهمكم لو شرفتمونا بالحضور إلى .... الساعة الثامنة مساء فى أى يوم ..

ابتسمت فى سرّى ..

عبقرى هو د. (مندور) فعلاً ..

خلال ثلاث ساعات زودنى بهذا الجهاز الذى أكد أنه يرسل طاقة إستاتيكية من حولى .. طاقة لا يراها الآخرون ، لكنها تظهر على الأفلام الفوتوغرافية الملونة على شكل هالة حمراء تحيط بى !

باختصار هو ملف (تسلا) صغير الحجم يوضع فى الجيب ، وقادر على جعلى أمرُ بامتحان تصوير (كيرليان) بنجاح تام !

فقط قال لى منذرًا :

– « لا تحاول زيادة الطاقة المنبعثة منه عن طريق العبث فى القرص .. هذا قد يؤذى الآخرين ويؤذيك .. »

أنا الآن عضو فى جمعية الباحثين عن الحقيقة ..

أو هل أقول (نادى الغيلان) ؟

الجزء الثالث

آخر الأعضاء

كانت تزداد عصبية فى البيت ، وصارت شخصية أخرى أقرب إلى المشاكسة .. صارت قليلة الاستحمام ، ولم تعد تعنى بشعرها .. أطالت أظفارها حتى تعتاد أبوها أن يصفها فى سخرية بأنها (أمنا الغولة) .. لا تدرى لماذا أحدث هذا الاسم ذعرًا غير مبرر فى نفسها ..

1

وفى الثامنة مساء الأربعاء اجتاز د. (رفعت) الباب ..

وفى الثامنة مساء الأربعاء ولد د. (رفعت) من جديد ..

لقد انتهى فصل من حياته ليبدأ آخر ..

هكذا سيقول من يكتب قصة حياتى يومًا ما ..

لقد فتح لى ذلك الخادم المتعجرف الباب فناولته الدعوة ، حتى كدت أقذفها فى وجهه قذفًا ..

سمح لى بالدخول فدخلت للمرة الأولى إلى قدس الأقداس الذى ظل مصرًا على طردى من قبل .. وجوه باسمة ضاحكة تقف فى انتظارى ..

رأيت ثلاثة أحدهم وسيم كممثلى السينما .. وأحدهم فارع الطول له عينان ثاقبتان .. وأحدهم يبدو كأنه رأى العالم .. يجب أن أكون حمارًا لكى لا أعرف أنهم (جمال) المحامى .. و(عدنان) المحاسب .. ود. (عامر) بالترتيب ..

صافحتهم فى ارتباك وتوتر .. يجب أن أكون متوترًا .. هذا لا شك فيه ..

قال لى د. (عامر) فى وقار وهو يهز يدى :

ـ « سررنا أنك قبلت الدعوة .. نحن نعرف أنك ستقبل .. »

واقتادنى إلى مكتب فاخر جانبى ، وهناك كانت فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين تكتب أشياء على الآلة الكاتبة .. نظرت لى وابتسمت .. إننى أقابل هنا كالفاتحين ..

ـ « هذه (هيام) سكرتيرة الجمعية .. »

تشرفنا يا آنسة (هيام) .. ترى هل طردوا (غادة) وجاءوا بك ، أم أنك تعملين بعض الوقت لا أكثر؟

جلست ، فقال (عدنان) فى لهفة للسكرتيرة :

ـ « فلترى ماذا يشرب الأستاذ (عزت) .. »

أى أستاذ (عزت) ؟ لكنى تذكرت من أنا وماذا أفعله هنا فثبت إلى رشدى .. على الكذوب أن يكون ذَكورًا .. سوف أمر بألف لحظة ينادون فيها اسم (عزت) فلا أفطن له إلا متأخرًا ..

قلت لها :

ـ « قهوة مضبوطة لو سمحت .. »

وشعرت بندم .. القهوة مشروب فيه نضج وحكمة .. كان علىّ أن أطلب مشروبًا رقيقًا يتناسب مع تنكرى .. إن المياه الغازية أو عصير الفراولة كانتا اختيارًا أفضل ..

قال (عدنان) وهو يجلس أمامى :

ـ « جمعية الباحثين عن الحقيقة هى جمعية مهمتها أن تساعدك على اكتشاف ذاتك .. على معرفة طاقاتك الكامنة .. »

هنا تدخل د. (عامر) :

ـ « فلسفة الموضوع كله هى أنك تملك قدرات لا تعرفها مخفية تحت غبار الحياة اليومية .. لديك مواهب لا تعرف كنهها .. ما نحاول عمله هو جعلك تجد هذه القدرات .. مهمتنا هى اكتشاف الكنوز التى لا يعرف أصحابها شيئًا عنها .. لو أنك بحثت فى جيب البنلة جيدًا فلربما تجد مليون جنيه لكنك لا تعرف .. نحن نعينك على العثور على هذا المليون ! »

قلت ضاحكًا ذات التعليق الذى استعمله (عادل) :

ـ « زوجتى تتولى هذه المهمة يوميًا وثق أنها لا تجد أى شىء ذى بال .. »

ضحك الرجل كأنها أذكى دعابة سمعها فى حياته ، وقال :

ـ « فقط أقرّب لك المثل .. ربما كنت تحمل فى أعماقك قائدًا عسكريًا محبطًا يرغب فى التحرر .. أستاذ جراحة مخ وأعصاب .. ربما كنت داعية دينيًا عظيم الشأن ولا تعرف هذا .. ربما أنت موسيقار لم يجد من يصغى له .. »

قلت فى غباء :

ـ « وما هو المطلوب منى ؟ »

ـ « لا شىء .. كل ما عليك هو أن تشرفنا بحضور اجتماعاتنا .. فإن سرَّك ما تسمع ، فأنت منا ، وإن لم يسرك فلا مشكلة .. »

تساءلت فى مزيد من الغباء :

ـ « هل الأمر يتعلق بتنظيم سرى ؟ لا أريد مشاكل مع الشرطة أو المباحث العامة .. »

ضحك وتبادل النظرات مع المحامى ، ثم قال :

ـ « لا شىء من هذا .. على كل حال يمكنك أن تراجع أوراقنا .. نحن جمعية مشهرة فى الشئون الاجتماعية وأوراقنا مراقبة بعناية .. »

ـ « هل يُسمح لى باصطحاب زوجتى ؟ »

قال فى شىء من الحرج :

ـ « فى الواقع لا .. الدعوة موجهة لك شخصيًا لأننا نثق فى مواهبك .. مع احترامى للمدام نحن لا نعرف عنها أى شىء .. »

هنا سمعت صوت (كليك) .. الصوت المميز لغالق كاميرا ..

نظرت إلى جوارى فخيل لى أن الستار يتحرك كأن هناك من كان يقف خلفه ..

إنهم أذكياء ! لكنى أكثر ذكاء .. كنت أتوقع أن يحاولوا التحقق من شخصيتى ومن الهالة التى أبعثها مرة أخرى .. لهذا أعادوا تصويرى خلسة ، ولهذا كنت قد وضعت الجهاز فى جيبى قبل أن آتى هنا .. من الصعب أن تستطيع نشل حافظة النشال !

قلت فى عناد طفولى :

ـ « أنا لا أذهب لأى مكان من دون زوجتى الحبيبة .. »

ـ « بعد انضمامك يمكن أن نرتب للمدام مقابلة شخصية .. اطمئن .. »

قلت وأنا أحكُ شعرى :

ـ « متى تبدأ هذه الجلسات ؟ »

قال د. (عامر) :

ـ « لهذا حددنا لك موعد الثامنة مساء أى يوم .. من حسن حظك أن هناك جلسة تبدأ حالاً .. »

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

كانت الجلسة على الأرض ..

مجموعة من الأرائك الأرضية التى تشبه ما يستخدمه الخليجيون فيما يسمونه (جلسة عربية) ، وقد بدا لى الجو مألوفًا بشكل ما ..

نباتات ظل تتناثر فى كل مكان .. هناك رائحة عطرة مدوخة فى الجو ، والإضاءة خافتة بشكل يجعلك تتساءل عن سبب إصابتك بالعمى .. أدعو الله ألا يكون هذا الغاز مخدرًا .. لكنى أستبعد هذا ما دام د. (عامر) ومن معه لا يضعون أقنعة ..

على الأرض كانت مجموعة من الناس .. رجال ونساء يجلسون فى مجموعات .. لم أر قط مجموعة متباينة بهذا الشكل من قبل .. نسوة بلغن الخمسين وفتية فى السابعة عشرة .. رجال يبدو أنهم من طبقة العمال ، وفتيات واضح أنهن من أكثر طبقات الإسكندرية ثراء وترفًا .. شىء واحد يجمع بين هؤلاء هو الهالة الحمراء بالتأكيد ..

هناك موسيقا حالمة تأتى من لا مكان .. أعتقد أن السماعات مخبأة فى السقف المتحرك ..

الخلاصة أن المنظر بدا لى بأتباع إحدى الديانات الغربية الغامضة فى أمريكا .. لن أندهش لو ظهر (كورش) أو (لافى) أو (مانسون) نفسه ليأمرنا بقتل أنفسنا من أجل الخلود .. ربما تكرر مشهد طقوس الماء فى رواية (غريب فى أرض غريبة) الرواية الأشهر لـ (هاينلاين) .. و(لتكن شربتك عميقة للأبد يا أخانا المائى) ..

وقف د. (عامر) أمام الجالسين .. كان بالبذلة الأنيقة العادية ولا يلتف بملاءة أو يلبس ثيابًا تليق بـ (كبير الكهنة) ..

قال للجالسين وهو يشير لى :

ـ « فلنرحب بضيفنا الجديد .. أستاذ (عزت المنياوى) .. »

هنا ردد الجميع بصوت واحد :

ـ « إنه منا .. إنه لنا .. »

حييتهم بهزة رأس وأنا أتساءل عن معنى (إنه لنا) هذه .. عندما يقول لك آكل لحوم البشر إنه (سيراك على مائدة العشاء) فأنت لا تستطيع تقبل كلماته بالارتياح المطلوب ..

كان هناك مكان فارغ ما بين فتاة حسناء من عينة (بابى) ورجل فظ يبدو كأنه مصارع متقاعد .. فجلست ..

نظرت لى الفتاة وسألتنى همسًا :

ـ « هل هى أول مرة لك ؟ »

ـ « نعم .. ما دمت لم ترينى من قبل .. »

ـ « هناك الكثير منا .. لسنا جميعًا موجودين هنا والآن .. »

هنا قال الرجل الفظ شيئًا على غرار (اخرسا) لأن د. (عامر) عاد يتكلم :

ـ « لأن التجربة شاقة ومثيرة فإننى أقول لكم إنكم لن تتذكروا أى شىء عنها فى البدايات .. بعد هذا يمكنكم تذكر كل شىء بوعى كامل .. »

ذلك النور الوهاج من خلفه يتألق ثم يخبو .. يتألق ثم يخبو .. يتألق ثم يخبو ..

لو كان عندى استعداد للصرع .. لو كانت تلك البقعة الكهربية فى عقلى نشطة ، لداهمتنى النوبة الآن .. لا شىء مثل الضوء المتقطع لبدء نوبات الصرع .. كل هذا من أجل التنويم المغناطيسى الجماعى ..

تمر فتاة حسناء كالحلم ـ أو ربما الإضاءة الخافتة جعلتها أجمل ـ حاملة زجاجة وأكوابًا ورقية .. وتصب مشروبًا للجالسين ..

ملأت لى كوبًا وضحكت ضحكة مشرقة ، ثم انصرفت ..

رآنى د. (عامر) بطرف عينه أطيل التحديق فى الكوب ، فقال :

ـ « نحن لا نوزع خمورًا .. فلا يخشين أحدكم أو تكن عنده تحفظات دينية .. إن هذا الإكسير يساعد على التأمل ، وهو مكون من أعشاب طبيعية.. »

هذا الرجل لا تفوته فائتة ، وهى صفات المحاضر الجيد على كل حال ..

لكنى لن أشرب هذا الشىء ..

هكذا انتظرت اللحظة المناسبة التى خفت فيها الضوء وسكبت الكوب فى إصيص نبات الزينة الذى وجدته خلفى ، ثم رفعت الكوب إلى شفتى متلمظًا ..

فعلاً توقفت عينا د. (عامر) النفاذتان على ربع ثانية للتأكد من أننى شربت .. ثم عاد يواصل كلامه :

ـ « كل واحد منكم يحمل نوازع دفينة .. أنت تنكرها لكننا نعرف أنها عندك .. هناك بركان داخلك ينتظر الخروج ، ونحن سنساعد هذا البركان ! »

ثم اتجه إلى فتى نحيل مذعور يجلس فى مواجهتى ، وسأله :

ـ « أنت .. ماذا تتوق إليه ؟ »

قال الفتى مرتبكًا :

ـ « أتوق إلى أن أكون مهندسًا و .. »

ـ « تكلم أيها الجبان ! ليس هناك من سيحاسبك على ما ستقول ! »

ثم نظر لنا فى حدة ، وهتف :

ـ « المشكلة هى الرقابة الصارمة التى تفرضونها على وجدانكم .. حتى وأنت وحدك لا تجسر على الاعتراف .. حتى وأنت هنا مدعو إلى أن تطلق سراح نزعاتك الكامنة لا تجسر على الاعتراف .. متى تعترف إذن ؟ فى ساعة الحساب ؟ »

قال الفتى :

ـ « وددت لو برعت فى لعبة الشطرنـ .. »

ـ « تكلم ! »

ـ « ربما كرة القدم .. »

ـ « تكلم أيها الرعديد ! »

واعتصر الفتى من ياقة قميصه ، وأمام عينىّ المذهولتين وجه له صفعتين ، فصرخ الفتى :

ـ « أريد أن أكون وحشًا وأن أقتل كل من يسخر منى ! »

ـ « أحسنت ! »

وأطلق سراحه .. فتنفس الفتى الصعداء ..

قال د. (عامر) وقد استعاد هدوءه بعد هذا الأداء المتصاعد (كريشندو) :

ـ « أنت وحش .. سنعلمك أن تكون وحشًا .. ولسوف تفعل ما تريد .. »

ثم أشار لرأسه ، وقال :

ـ « كل منكم يخفى أسرارًا شنيعة هنا .. ونحن نساعدكم بالتدريج على إطلاق هذه الأسرار .. »

ثم مشى نحوى وأشار لى فى حدة (كأنه يقول إن أوان المجاملات والمزاح قد انتهى) :

ـ « وأنت ؟! »

لا أريد أن يجذب ياقتى ويصرخ فى وجهى ؛ لذا قلت بصوت مبحوح خائف :

ـ « أريد أن أكون مجرمًا مرعبًا يرتجف الناس لدى سماع اسمه ! أريد أن أكون .. »

ونظرت فى عينيه وأنا أضغط على الكلمة الأخيرة :

ـ « أريد أن أكون غولاً ! »

للحظة لمعت عينه ، ثم قال ضاحكًا :

ـ « ستكون كما أردت .. الحقيقة أن اختباراتنا وتحرياتنا دلتنا على أنك تملك طاقات هائلة .. طاقات لم تتح لأحد من الجالسين هنا ، وإننى لأرشحك كى تكون مساعد نائب رئيس مجلس إدارة الجمعية ! بعبارة أخرى سوف نؤهلك لتكون النائب يومًا ! »

قلت لنفسى : بارع هو د. (مندور) .. لم يقتصد فى الكهرباء الإستاتيكية المنبعثة منى ، وهذا أقنع هؤلاء القوم أننى موهبة دفينة فعلا .. واضح أننى أهم عضو فى الجمعية الآن .. الجمعية التى لا أعرف هدفها بالضبط ولا المقصود منها . فقط أعرف شيئًا واحدًا ..

أنا سأكون العضو الأخير ..

* * *

دامت الجلسة نحو ساعة ..

لم يتغير الكثير .. وبدا لى أنها بالفعل نوع من العلاج النفسى الجماعى .. أنت تخرج من أعماقك أسود شىء كنت تخشى الاعتراف به حتى لنفسك .. هناك سمعت اعترافات لا أجرؤ على كتابتها على الورق .. لكن هذا مفيد قطعًا .. إنه نوع من التطهير لا شك فيه ..

إذن أين يوجد الخطأ ؟

عادت الإضاءة تتحسن فبدأنا نرى بعضنا من جديد بوضوح هذه المرة .. وأدركت أن الجلسة انتهت وأن موعدنا التالى هو يوم السبت ..

نهضت متثاقل الأطراف .. كأن ردفى صار جزءًا من الأريكة ..

هنا شعرت بمن يلمس كتفى فى رفق ، ويصيح :

ـ « أنت هنا يا (رفعت) ؟ لم أتبين وجهك جيدًا بسبب الإضاءة ! »

لماذا رسمت هذه الخطة برمتها ونسيت وجود د. (سامى) ؟!!

* * *

2

كان ـ ذلك الأحمق ـ سعيدًا جدًا ، كما يفعل ممثلو الأفلام الدينية القديمة عندما يكتشف أحدهم إيمان الآخر ، أو أفلام الثورة عندما يصارح الآخر صديقه : أنا من الضباط الأحرار يا (علاء) !

إنه يعرف تنكرى ولم ينخدع لحظة ..

قلت له همسًا وبسرعة :

ـ « اسمع .. اسمى هنا ليس (رفعت) بل (عزت) .. الأستاذ (عزت) .. هناك أسباب يطول شرحها ! لا أريد أن يقترن اسمى بهذا الموضوع قبل أن أرتاح لهؤلاء .. »

أعرف أنه سيفضحنى فى أول فرصة .. هذا لا شك فيه .. هو لم يعد منا بل صار منهم .. لم يعد رجلنا بل هو رجلهم ..

قال ضاحكًا وقد استعاد طبيعته المرحة القديمة :

ـ « فهمت .. ما زلت متشككًا .. لكنك زرت الستوديو مثلى والتقطوا لك صورة وعرفوا موهبتك ! »

إذن هذا الجزء صار معروفًا لهم جميعًا .. لذا هززت رأسى وتظاهرت بأننى محرج أكثر منى خائفًا ..

هنا ظهر د. (عامر) وقد أشرق وجهه ، وقال :

ـ « أرى أنكما متعارفان .. جميل .. جميل ! والآن هلا سمحت لى يا د. (سامى) ؟ أريد الاختلاء بالأستاذ (عزت) قليلاً .. »

ثم صاح فى جموع أعضاء النادى الراحلين :

ـ « تذكروا يا شباب أنكم لن تتذكروا ! فور عودتكم لبيوتكم ستكون ذكرى هذه الجلسة قد مُحيت ، لكن لا تقلقوا .. سوف تلمسون تغيرًا ملحوظًا نحو الأفضل فى سلوككم وحياتكم .. »

لا بأس .. لقد تدخل مجيئه فى إنقاذى .. ترى هل ينسى د. (سامى) أنه قابلنى هنا ؟

وشعرت به يقتادنى من ذراعى إلى غرفة جانبية ..

لم أدر ما يجب عمله كى أتظاهر بأننى تحت تأثير ذلك الشراب .. من الواضح أنه لا يخدر الحواس ولا يثقل اللسان .. الحل هو أن أشترى ولا أبيع .. سأكتفى بالإصغاء ..

كانت غرفة مكتب أنيقة صغيرة الحجم .. ستائر حمراء من الطراز الذى يخفى المتلصصين ، ومكتبة صغيرة بها بعض الكتب النفسية .. هناك تلفزيون صغير معلق وجهاز (هاى فاى) يصلح لتشغيل شرائط الكاسيت أو الأسطوانات ..

هناك أريكة من جلد أسود ، وهناك صورة عملاقة تمثل رجلاً أجنبيًا مخيف النظرات .. طابع الصورة الحبيبى وألوانها (بنى أصفر) ،

وربطة عنق الرجل التى تحيط بالياقة بالكامل .. كل هذه كانت علامات على أن الصورة تمت للقرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين ..

هناك صورة أخرى لامرأة أجنبية لها ذات الطابع القديم .. وصورة لرجل عسكرى مصرى يقف على شاربيه صقران ويضع الطربوش .. لو كان أكثر بدانة لصلح أن يكون (عرابى) ..

قال لى وهو يضع ذقنه على قبضته ويرمقنى بنظرات ثاقبة :

ـ « هل أنت راض عن الوضع هنا ؟ »

قلت فى فتور :

ـ « لا أدرى .. »

نهض وأشار إلى صورة الرجل العملاقة ، وقال :

ـ « هذا هو لورد (إيمرى) .. توفى عام 1891.. »

جميل جدًا .. لكن لابد أن هناك من مات عام 1891 فليس الأمر بالخبر المهم إلى هذا الحد ..

ثم أشار إلى صورة المرأة ، وأردف :

ـ « (هيلين هوجزورث) .. ابنة أخيه .. »

قلت فى ذكاء :

ـ « إذن هو عمها .. »

ـ « بالضبط .. »

ثم أشعل سيجارًا غليظًا وقال وهو يتأمل طرفه المشتعل :

ـ « أنت لا تعرف حقيقة الصور التى التقطناها لك .. لقد وجدنا أن هالة مريعة تحيط بك .. هالة لم نر مثيلًا لقوتها منذ زمن سحيق .. أنت تخفى تحت جلدك شيطانًا لكنك لا تعرف هذا .. ربما أنت أكثرنا شرًا .. لهذا استحققت أن آتى بك هنا لأشرح لك ما استغلق عليك ، وأنا أعرف أنك ستنساه عندما تخرج ، لكن لا شىء يُنسى فى العقل الباطن .. ستظل كلماتى هناك تحركك وتجعلك تعرف من أنت ..

« كان اللورد (إيمرى) وحشًا آدميًا مارس كل الرذائل .. لا يوجد وحل لم يتمرغ فيه ولا توجد عقيدة لم يخرقها ، إلا أنه أدرك أن أجله قد دنا فقرر أن يعهد للأحياء باستكمال ما بدأه .. وكان أسلوبه هو التهديد .. يقال إن روحه الغاضبة كانت تلاحق من لم ينفذ وصيته من الورثة .. لا أعرف حقًا مدى صحة هذا .. على كل حال هناك ثلاثة من ورثته لقوا حتفهم فى ظروف غامضة مريعة ، بينما عاشت (هيلين) .. عاشت وفرّت إلى مصر .. »

وأشار إلى صورة السيدة .. ثم واصل الكلام :

ـ « فى مصر أقامت فى الإسكندرية ، وتزوجت من ضابط يدعى (منصور) وأنجبت أربعة أطفال .. أحدهم صار جدى وجد (عدنان) وجد (جمال) .. »

كانت هذه معلومة جديدة فعلاً .. إذن فهؤلاء الثلاثة أقارب .. وجدتهم الكبرى هى ابنة أخى ذلك اللورد المجنون (إيمرى) ..

ولكن ما معنى هذا كله ؟ ما وصية لورد (إيمرى) هذه ؟

* * *

فى فى فو فام ..

* * *

قال (عامر) :

ـ « هناك بركان تحت جلد كل واحد من هؤلاء الذين يحضرون اجتماعاتنا .. ما أراده لورد (إيمرى) هو أن يحرر كل إنسان بركانه الخاص .. من الغريب أن يعرف المرء أن هناك غولا تحت جلده ، لكننا نخبره بهذا ونساعده على تحرير هذا الغول .. »

لم أجرؤ على أن أسأل السؤال المهم :

ـ « لماذا ؟ »

لكنه وفر علىَّ مئونة هذا السؤال عندما قال :

ـ « كل خطوة تقربنا للطبيعة أكثر هى خطوة صحية .. هذا ما رآه جدى الأكبر .. مثلاً اعتقد جدى من دراساته المتعددة أن كل الأجناس البشرية مارست (الكانيبالزم) ـ أكل لحم نفس النوع ـ فى وقت من الأوقات .. »

ارتجفت لسماع الكلمة .. كنت أتوقع شيئًا كهذا .. يعلم الله أننى توقعت شيئًا كهذا ..

واصل د. (عامر) الكلام وقد اتخذ طابع المحاضر :

ـ « كانت فكرة جدى هى إقامة جمعية سرية لكل من يرغب فى ممارسة هذا الطقس .. بعبارة أخرى : تكوين ناد للغيلان .. بالطبع لم يكن يملك الإمكانيات اللازمة لهذا .. أعنى بالإمكانيات العلاقات الاجتماعية ، فقد كان الكل يهابه ويكرهه ، لهذا ألقى بهذه المهمة على عاتق الورثة ، وطلب من كل واحد منهم أن يذهب لركن من أركان الإمبراطورية البريطانية ، ويكون ناديه الخاص .. لم ينفذ أى واحد هذا الطلب ، ما عدا جدتى التى أفزعها موت الآخرين ، وكانت مهمتها أن تنشئ هذا النادى فى مصر .. جربت محاولات محدودة ، وكانت نتيجة هذا أن مات زوجها الضابط المصرى من الرعب عندما عرف ما تمارسه زوجته سراً .. من ثم قررت أن تعدل عن هذه المهمة وتنقل الوصية لأولادها .. فشل هؤلاء كذلك ، وظلت رغبة اللورد معلقة للأبد ينقلها جيل لآخر .. إلى أن جاء جيلنا ومعنا طريقتنا العلمية وأسلوبنا المنظم ، وطريقة انتقاء حالات (كيرليان) التى طورتها أنا .. وهكذا ولد نادى الغيلان كما أراده جدى حقًا ..

« الكانيبالزم ! »

« هذا الطقس القديم يداعب أكبر مخاوفنا النفسية الكامنة فى مؤخرة وعينا : الخوف من أن نؤكل ، لكن له بعض المتحمسين المخلصين ، لدرجة أن مفكرًا مكسيكيًا اسمه (ريفيرا) كتب يقول : حينما تصل الحضارة إلى مستوى معين وتتحرر من كل التابوهات والخرافات الحالية ، فلسوف يسمح بالكانيبالزم بشكل قانونى !

« كلمة Cannibalism أى (أكل لحم الجنس ذاته) مشتقة من لفظة (كاريب) الأسبانية التى تصف قبائل (الانتيل) .. لقد مورس أكل لحم البشر عبر التاريخ فى خمس حالات لا غير :

1 ـ أثناء المجاعات ..

2 ـ فى المدن المحاصرة ..

3 ـ بسبب التعود .. إن بعض البدائيين كانوا يحبون مذاق هذا اللحم بالذات ..

4 ـ كنوع من المبالغة السادية فى إيذاء العدو .. أغلب حروب القبائل فى أفريقيا شهدت حوادث (كانيبالزم) حتى فى عصرنا هذا ..

5 ـ وأحيانًا مورس كنوع من العلاج .. إن التهام عدوك ينقل لك قدراته كما يعتقدون .

« من الغريب أننا جميعًا نمت بصلة قربى لأجداد كانوا يمارسون هذا الطقس . بعض الجينات التى وجدها العلم فى خلايانا لا تفسير

لوجودها إلا حمايتنا من تبعات هذا النشاط المرعب .. لقد وجد الأثريون عظامًا بشرية فى أوعية طهى عمرها نصف مليون عام فى الصين . من الأسماء المهمة كذلك فى تاريخ هذا الطقس قبائل (أناسازى) فى أمريكا الشمالية ، والأزتك وجزر (فيجى) .. ويقال إن كابتن (جيمس كوك) الذى قتله سكان (هاواى) ، قد تم التهامه ..

« لو راجعت كتابات د. (جمال حمدان) لوجدت أن هذا النشاط مورس فى مصر فى أوقات جفاف النيل ، وكيف أن جثث اللصوص المشنوقين كانت تصير هياكل عظمية خلال الليل .. على الأقل انتهت معلومات لورد (إيمرى) عن الموضوع عند هذا الحد لأنه مات ..

« يبدو لى أن أكثر قصص أكل لحوم البشر بعد ذلك مختلقة .. هناك إشاعات قيلت عن السوفييت أثناء حصار (لينينجراد) فى الحرب العالمية الثانية .. وهناك إشاعات قيلت عن الصينيين أثناء المجاعة والثورة الثقافية . ومن الواضح أنها جزء من الحرب الثقافية ضد الشيوعية. لكن هناك محاكمة شهيرة فى أمريكا لبعض الجنود اليابانيين الذين التهموا طيارين أمريكيين أثناء الحرب ، وقد أدين خمسة منهم وأعدموا فعلاً ..

« هناك شواهد مؤكدة ـ وإن كانت نادرة ـ عن أكل لحم البشر فى العصر الحديث. مثلاً قصة جماعة (دونر) الشهيرة عام 1846 ..

كانوا مجموعة تتكون من 87 من المهاجرين الأمريكيين سافروا للغرب نحو (كاليفورنيا) ، لكن الجليد احتجزهم فى (أوتاه) .. مات أربعة وهكذا وجد الباقون أن عليهم التهام اللحم البشرى .. فى البداية أجروا قرعة لكنهم لم يجدوا الشجاعة لتنفيذ ما أملته هذه .. فكروا فى أكل الأدلة الهنود (هذا نموذج واضح لرقة المشاعر الغربية) لكن هؤلاء فضلوا الفرار وسط الثلوج .. هكذا اضطر البؤساء لأكل من ماتوا منهم .. بعضهم فضل الانتحار وبعضهم جن .. ولم ينج إلا نصفهم فى يناير 1847 ..

« ثمة تقارير دقيقة عن التهام الخمير الحمر الكمبوديون لأعدائهم فى الستينيات ، وقد تم إعدام بعض الجنود الذين مارسوا هذا العمل ..

« هناك آكل لحم بشر مشهور فى الولايات المتحدة اسمه (إد جين) ، ومن عباءته خرج قاتل فيلم (سايكو)[*] .. لاحظ أن أكل لحوم البشر لا يعتبر جريمة فى الولايات المتحدة .. إن خيال المشرع لم يصل لهذه الدرجة .. المرات التى حوكم فيها أكلة لحوم بشر ، أعدموا بتهمة القتل لا أكل لحوم البشر ..

« هناك كذلك الطالب اليابانى (ساجاوا) الذى التهم صديقته الهولندية وهما يدرسان فى (السوربون) .. واستطاع أبوه الثرى

(★) و(هانيبال لكتر) فيما بعد ..

أن ينقذه لأنه أثبت أنه مخبول .. اليوم هذا الطالب مؤلف شهير له مراجع مهمة عن هذا الموضوع .

« منذ أعوام .. بالتحديد عام 1972 .. سقطت طائرة تقل فريقًا رياضيًا من (أوروجواى) فى جبال الأنديز .. واضطر الناجون لالتهام من ماتوا .. وقد تم إنقاذهم بعد شهرين .. هذه قصة شهيرة جدًا كُتبت عنها عدة كتب .. »

انتهى الكلام وساد صمت رهيب ..

فى النهاية قال لى وهو يساعدنى على النهوض :

ـ « يكفينا هذا اليوم .. سوف تنسى كل شىء ، لكنك فى المرة القادمة سوف تعرف ما هو أكثر .. »

* * *

3

اعتادت (غادة) منظر تلك العربة السوداء (الفان) التى تصل للفيلا تحت جنح الظلام ..

فى الليالى التى تتأخر فيها ، كانت تراها هناك فى الساحة الخلفية .. مظلمة الأنوار مريبة .. وقبل ظهورها كان كثيرون يتفقدون المنطقة للتأكد من أنه لا يوجد أحد يراقب ..

تُفتح العربة ، ويتعاون عدة رجال على إخراج شىء ما .. يحملونه بسرعة إلى القبو ، ثم لا تعرف ماذا حدث له ..

لم تكن (غادة) تعرف الكثير فى الواقع .. كانت سكرتيرة الجمعية ، لكنها لم تكن تتعامل إلا مع أوراق رسمية مملة .. الجمعية العمومية .. مجلس الإدارة .. أمين الصندوق .. محضر الاجتماع .. إلخ ..

لكنها بدأت تكوّن فكرة ما عما يدور فى هذا المكان .. فكرة مبهمة غامضة لكنها مفزعة .. فقط كانت تحاول جاهدة ألا تعرف الحقيقة .. ألا تصل أفكارها إلى الفهم التام ..

أحيانًا كانت تضطر إلى العودة فى الليل .. وبالطبع لم تكن هناك مشكلة لأن سيارة (جمال أبو غصيبة) كانت توصلها .. يقودها سائق مسن صموت هو عم (مصطفى) ..

لكنها كانت ترى تلك الكلاب الغريبة الضخمة تركض متواثبة عن بعد ، وهى تطلق تلك الضحكة الغريبة المرجفة .. أغرب كلاب رأتها فى حياتها .. هى شىء يقف بين الأسود والكلاب .. وكانت (غادة) تنظر لها عبر الزجاج المغلق البارد وترتجف لفكرة أن تضطر إلى المشى بينها .

قال لها السائق العجوز :

ـ « ضباع .. »

ثم لم يزد كلمة واحدة .. ضباع فى العجمى ؟ من سمع عن هذا الهراء من قبل ..؟

لكنها كانت قد اعتادت حدوث أمور غريبة منذ جاءت هنا ..

* * *

عندما عاد (جمال أبو غصيبة) للشركة التى كانت تعمل فيها ، كانت قد اتخذت قرارها ..

سألته عن عملها .. السكرتارية فقط ولا شىء آخر .. ثم قبلت العرض السخى .. راتب يفوق راتبها هنا خمس مرات ، وشاب وسيم يزعم أنه معجب بها .. سيارة توصلها لدارها وتعود بها ..

فقط فى اليوم الأول ذهب أبوها معها ، وقابل د. (عامر) و(عدنان) .. وكانت جلسة ناجحة جدًا .. اتضح أن لهم معارف مشتركين ، وعرف الأب أن (جمال) سيسدى له خدمات جمة فى قضية أرض البدرشين المتنازع عليها .. هناك صلة قرابة بعيدة مع (عامر) .. هذا هو ما قالوه على كل حال ..

فى النهاية تم تبادل أرقام الهاتف مع الكثير من :

- « ابنتك هى ابنتى .. ثق فى هذا.. »

و ...

- « سيماهم فى وجوههم .. أنتم أولاد ناس .. لن أقلق عليها وهى مع جمعية محترمة مثل هذه .. »

عندما عاد بها إلى الدار قال لها إن الفرصة لا تتكرر مرتين ..

قالت له فى وهن إنها غير مستريحة .. لقد اعتادت أن تكون الحياة قاسية عليها .. عندما ترفق بها الحياة بهذا الشكل ، فلابد أن هناك خدعة ما ..

لكن الأب أصدر قراره النهائى بشكل لا رجعة فيه :

- « سوف تعملين فى تلك الجمعية .. »

هكذا كان .. يومًا ما سوف يصدر لها الأمر بأن تتزوج فلانًا ولسوف تفعل .. ولسوف يأمرها بأن تنجب فتنجب .. وسوف يأمرها بأن ترضع أطفالها فترضعهم .. على الأرجح سيأمر زوجها كذلك لأن شخصية أبيها كاسحة ..

كان العمل سهلاً مريحًا .. بالواقع بدأت تتساءل عن سبب حاجتهم إلى سكرتيرة أصلاً .. أما عن (جمال) المعجب فقد كان مهذبًا رقيقًا ، لكنه كف عن أن يبدى إعجابه .. كان يعاملها بشكل رسمى تمامًا ، حتى تساءلت إن كانت سمعت ما قاله بوضوح .. لقد خيل لها أنه طلب يدها فى ذلك اليوم .. وقد شعرت بشىء من الإهانة لأنه لم يكرر العرض أو يحاول مغازلتها لتصده فى غلظة .. هناك قصة شهيرة لـ (تشيكوف) يركب فيها الفتى الزحافة على الجليد مع الفتاة .. فإذا أسرعت الزحافة وتعالى صفير الهواء ، همس الفتى فى أذنها (أحبك!) ..

تنزل الزحافة فتسأله الفتاة عما قاله ، فينكر بشدة أنه فتح فمه أصلاً .. هذا تأثير الريح لا أكثر .. يجن جنون الفتاة وتصمم على إعادة المحاولة .. ومن جديد يتكرر الموقف و(أحبك !) .. وهكذا ..

لو أن رجلاً أراد أن يدفع امرأة للجنون فليتصرف بهذه الطريقة ..

وفى النهاية فقدت التحكم فى أعصابها وكبريائها ، وسألته فى حدة حينما لم يكن هناك أحد فى المكتب :

ـ « ماذا عن العرض الذى قدمته لى فى تلك الشركة ؟ »

كما توقعتَ سألها فى تهذيب :

ـ « أى عرض ؟ »

ـ « عرض الزواج .. »

هز رأسه كانما تذكر شيئًا مهمًا .. ثم قال :

ـ « يا صغيرتى نحن اتفقنا على أن تجربينى شهرين .. لا تتخذى أى قرار قبل مرور الشهرين .. »

ثم حياها وانصرف ..

هنا بدأت تدرك الحقيقة .. على الأرجح هم كانوا بحاجة إلى سكرتيرة لا أكثر .. لم يكن موضوع الزوجة هذا سوى حيلة لإدارة رأسها ..

لا مشكلة هنالك .. فالعمل مريح ومجز .. لكن السؤال المهم يبرز من جديد : من قال إنها أبرع سكرتيرة فى العالم ؟ كان بوسعهم أن يجدوا سكرتيرة عالية الكفاءة بنصف هذا الأجر ..

ليس غرضهم غير أخلاقى .. لو كان الأمر كذلك لعرفت بعد كل هذا الوقت ، وهى ليست (مارلين مونرو) على كل حال .. يمكنهم أن يجدوا من هى أجمل بمراحل بربع هذا الراتب ..

(غادة) حائرة .. كل هذا الحظ الحسن يتصها ولا يسعدها .. إنها عادة المرأة فى التهام نفسها حتى الأذنين حتى إذا كانت سعيدة .. فقط لو استطاعت أن تفهم !

* * *

حضرت (غادة) العديد من تلك الاجتماعات التى تدور فى الفيلا ..

شربت الإكسير مثلهم ، ونسيت كما نسوا .. لكنها ظلت بحكم عملها تملك تلك الحكمة الكنيية لمن يعرف ما هو أكثر ..

هناك أشياء رهيبة تدور فى هذه الفيلا فى ساعات الليل ، عندما لا تكون هناك .. عندما يحملها عم (مصطفى) إلى دارها ..

استنتجت هذا ، وقد نزلت إلى القبو عدة مرات فلم تجد شيئًا غريبًا .. نفس الفوضى والأثاث القديم .. لكنها بحاسة الأنثى عرفت أن ما يحدث هنا ..

كانت تزداد عصبية فى البيت ، وصارت شخصية أخرى أقرب إلى المشاكسة .. صارت قليلة الاستحمام ، ولم تعد تعنى بشعرها .. أطالت أظفارها حتى اعتاد أبوها أن يصفها فى سخرية بأنها (أمنا الغولة) .. لا تدرى لماذا أحدث هذا الاسم ذعرًا غير مبرر فى نفسها ..

لماذا صارت تحبُّ أكل اللحم .. ؟

ذات ليلة وجدت أنها قد فتحت الثلاجة ، وراحت بالسكين تحاول تمزيق شريحة من اللحم المجمد .. بالواقع كانت (تنشرها) نشرًا ولا تقطعها لأنها لا تستطيع الانتظار حتى تذوب .. كانت عملية قاسية جمدت أظفارها وجعلت الدم يسيل على أناملها .. فى النهاية نجحت فى أن تستخرج شريحة صغيرة رفيعة مجمدة .. حملتها إلى الموقد وراحت تشويها .. طريقة غريبة للطهى لأن قطعة اللحم احترقت فى طبقاتها السطحية وظلت نيئة فى قلبها .. برغم هذا أكلتها .. وفى الصباح تساءل الجميع عن سبب هذا التصرف الأخرق ، ولامها أبوها لأن الطبقة الوسطى تعتبر اللحم من التابوهات .. لا يجب المساس بنصيب الأسرة بأى شكل ..

فى مرة أخرى كانت تلعب مع (عزة) أختها .. مالت (عزة) عليها مداعبة ، هنا وجدت أن كتف الفتاة العارى أمام فمها .. لا تعرف السبب لكن رغبة عارمة دفعتها إلى أن تعض هذه الكتف بأعنف ما استطاعت ، وكانت صرخة الفتاة كفيلة بإيقاظ الموتى ..

ـ « أنت مجنونة ! مجنونة تمامًا !! »

لكنها لم تجد الأمر سيئًا لهذا الحد .. بالواقع أراح شيئًا ما فى نفسها ..

ـ « ماذا أصابك أيتها المخبولة كى تعضى أختك بهذا الغِلّ ؟ »

هى نفسها لم تعرف سبب هذا .. صارت أميل إلى العزلة لا تتبادل كلمة مع أحد حتى يأتى موعد العمل صباحًا ، وتسمع كلاكس السيارة تحت نافذتها ..

كانت متأكدة من أن هناك من يتجسس على الجمعية .. لقد اكتشفت اختفاء عدة ملفات من ملفاتها ثم ظهورها بعد يومين بلا تفسير ..

أخبرت (عدنان) بهذا لتثبت أنها دقيقة تلاحظ كل شىء ، لكنه راح يفكر فى الأمر بعمق .. ثم إنه طلب من أعضاء الجمعية واحدًا تلو الآخر أن يقابله فى مكتبه .. حتى هى وجدت نفسها جالسةً على المقعد أمامه تجيب عن أسئلة تافهة لا علاقة لها بالموضوع .. وسمعت غالق كاميرا يفتح ويغلق أثناء جلوسها .. كانت تدرك أن للتصوير دورًا ما فى انتقاء أعضاء الجمعية .. كلهم مروا بخبرة التقاط صورة مع هذا السيد (محفوظ) ..

على كل حال سمعت جلبة وصراخًا .. كان أحد الأعضاء الجدد يجتمع بـ (عدنان) فى المكتب .. بعد هذا لم تسمع أى شىء ولم تعرف شيئًا ..

فقط سألت (عدنان) عن هذا العضو وكان يدعى (أحمد جودت) ..

قال لها بلا مبالاة :

- « لقد ترك الجمعية .. يمكنك شطب اسمه من الأعضاء .. »

لسبب ما شعرت بأن هذا كان اختبار ولاء .. ومن الواضح أن (أحمد جودت) قد فشل فيه ..

والحقيقة التى لم تر لها معنى ما ، هى أن عددًا لا بأس به من أعضاء الجمعية كانوا يشطبون بشكل دورى ..

ما معنى هذا ؟

* * *

4

كعادتها انتظرت حتى ساد الفيلا الهدوء قرب المساء ، ثم نزلت إلى القبو بحثًا عن شىء مريب .. شىء يفسر لها ما يحدث ..

أضاءت المصباح الكهربى الواهن ومشت بين المخلفات ..

هنا لا توجد فئران .. على قدر علمها هو القبو الوحيد فى العالم الخالى من الفئرأن .. هذا مريح لها كأنثى لكنه غريب كذلك ..

هنا زجاجات فارغة .. كتب قديمة .. أثاث بال .. صناديق فارغة .. مصيدة فئران لا لزوم لها ..

ثم وجدت ذلك النائم جوار الجدار ..

نحن نعرف قصة (غادة) مع (على فونية) وكيف دارته عن الأعين .. الحقيقة أنها لم تكن تعرف بالضبط ما تخشاه لكنها تخشاه كثيرًا جدًا ..

هذا رجل بائس يجهل كل شىء .. ربما كانت أفضل خدمة تقدمها له هى أن تتركه يموت ، لكنها لم تكن تملك طبعًا القدرة على اتخاذ قرار كهذا ..

فى مكان ما من الفيلا تعرف أن اجتماعًا ينعقد .. هى حضرت هذه الاجتماعات كثيرًا جدًا وتعرف الطقوس .. لكنها تعرف كذلك أن عليها الانصراف الآن ..

هكذا دارت الرجل وتركته فى رعاية الله ، ثم لحقت بالسيارة الواقفة أمام الباب ..

ليتها تعرف حقًا ما يدور فى القبو بعد رحيلها ..

* * *

فى الصباح كان أول ما فعلته عندما تأكدت من أن أحدًا لا يراقبها أن نزلت إلى القبو ..

كما رأينا ساعدته على الفرار و :

- « هيا يا أحمق ! هل نمت ؟ كيف نمت ؟ كيف استطعت ؟ »

تعينه على تسلق حافة الباب ليخرج وتردد بلا انقطاع :

- « هلم ! اخرج ! لا تعد هنا ثانية أبدًا ! »

لم يكن بحاجة إلى أية تعليمات وهو يتواثب فى خفة عبر الحديقة .. خفة لا تتناسب مع سنواته الستين ..

تصيح به من الفتحة :

- « لا تحك ما رأيت فلن يصدقك أحد !! »

ثم استدارت لترجع ..

هنا اصطدم رأسها بصدر (جمال) المحامى الواقف وراءها !

* * *

للمرة الأولى ترى هذا التعبير على وجه (جمال) .. لم يكن هذا التعبير بشريًا .. لم يكن الرجل بشريًا على الإطلاق .. هذا هو التفسير الوحيد لكل هذا الشر المرتسم على وجهه .. لقد ارتفع حاجباه ليصيرا فى مستوى خط شعره الأمامى .. ولا شك أنهما كانتا تشعان نورًا مخيفًا ..

يضغط على أسنانه شديدة البياض كأنه وحش ما ..

لكنه لم يفعل شيئًا .. لم يقل شيئًا ..

فقط جرى خارج القبو ، وهو يصيح :

- « (عصمت) ! فتشوا الحديقة ! »

هرعت إلى الخارج وهى تدرك أنها ارتكبت خطأ شنيعًا .. سوف تُعاقب .. تعرف أنها سوف تُعاقب .. فقط دعهم يكتفوا بطردى يا رب .. ربما بعض الصفعات وينتهى كل شىء ..

لكنها كانت تعرف أفضل .. هذه النظرة التى بدت فى عينى (جمال) ليست نظرة رئيس يبغى فصل سكرتيرته أو حتى ضربها .. ليست كذلك أبدًا ..

صعدت فى الدرج قاصدة مكتبها .. جلست هناك عاجزة عن اتخاذ قرار .. ثم أمسكت بالهاتف وقررت أن تطلب أباها .. هو وحده سيعرف كيف ينقذها من هذا الـ ...

ذلك الأصبع على زرّ قطع المكالمات ..

رفعت وجهها فى ذعر ، لتجد أن (عامر) و(جمال) و(عدنان) يقفون أمامها .. كلهم ينظر لها ذات النظرة المهابة ..

قال (عامر) :

ـ « وجدناه .. يبدو أنه هشم ساقه أثناء الوثب .. لكن من الخطر أن نحمله إلى الفيلا .. المنطقة مليئة بالشهود الآن .. »

قال (جمال) وهو يمسك بمعصمى (غادة) :

ـ « دعه يحك كل شىء فلن يصدقه أحد .. حتى لو تم التفتيش فلن يجدوا شيئًا .. »

كانوا يتكلمون كأنهم فى اجتماع خاص .. لا أحد يعيرها أى اهتمام .. هذا أثار ذعرها أكثر ..

شعرت بشىء بارد على معصميها فنظرت .. لقد ثبّت (جمال) صفدًا معدنيًا هناك .. وشعرت به يدفعها دفعًا أمامه ..

لم تتكلم .. فقط انفجرت فى نشيج طويل يمزق نياط القلوب ، لكن هؤلاء لم يبدوا أية علامة على أنها موجودة أو حية .. إنهم يتكلمون :

ـ « أحضر (هيام) لتكون سكرتيرتنا الجديدة .. »

ـ « نعم .. نعم .. (هيام) مناسبة .. وجميلة كذلك .. »

ـ « يا لك من خنزير ! لن تتغير أبدًا ! »

ضحك .. كثير من المرح ..

ـ « اجعل الخدم يتأكدون من عدم وجود شىء مريب لأن الشرطة ستكون هنا اليوم أو غدًا .. »

كانت عصابة توضع على عينيها .. وكان الذعر قد جعلها لا تبدى أية حركة .. ربما لو خمشت وضربت وركلت لكان هذا مناسبًا .. لكن ما الجدوى ؟

* * *

أنت تشعر بالعجز والرعب .. العجز الذى يجعل الفأر المحاصر يتحول إلى دمية بين مخالب القط .. رأيت قطًا فى طفولتى يعبث بفأر ، وأكاد أقسم أن الفأر كانت أمامه نحو عشر فرص للفرار لكنّه لم يستغلها .. لم يرها ..

* * *

ماذا حدث ؟ وكيف ؟

لقد مشوا بها قليلاً ثم شعرت بأنها تُحمل حملاً .. ثم تُنزل على الأرض .. ثم تحمل ..

فى النهاية هناك من ينزع عنها العصابة ..

إنها فى الظلام .. فى مكان كريه الرائحة ..

مكان لم تره من قبل .. هل هو قبو القبو ؟

إنها فى قفص ضخم كأقفاص الوحوش .. تمسك القضبان بيدها وتحاول أن تزيحها ..

تنظر فى الضوء الخافت إلى الأقفاص المجاورة فترى بشرًا بعضهم نائم وبعضهم ينظر لها .. شىء مرعب فى هذه النظرة كأنها نظرة الوحوش ..

تنظر إلى الجهة الأخرى من القاعة الواسعة فترى أقفاصًا أخرى أضخم وأكثر صلابة .. ما الذى يوجد فى هذه الأقفاص ؟ لا تتبين .. لكنها تشعر أن لها هيئة البشر .. لكنها ليست بشرًا .. هذا واضح .. هذا هو ما يثير الهلع .. أن ترى بشريًا ليس بشريًا كذلك ..

هنا سمعت من القفص المجاور من يقول فى وهن :

ـ « غيلان يا فتاة ! هؤلاء غيلان ! »

نظرت بطرف عينها ففوجئت بأن هذا هو (أحمد جودت) .. العضو الذى رسب فى امتحان التصوير على الأرجح ..

قالت فى ذهول :

ـ « ومن نحن ؟ وماذا نصنع هنا ؟ »

قال بذات الوهن :

ـ « نحن طعام الغيلان .. لابد لهذه الكائنات أن تأكل .. ألا ترين هذا معى ؟ »

* * *

5

كنت أنا فى غرفة نومى بتلك الشقة الجديدة ..

قد انتهيت من مكالمة مع (عادل) شرحت له فيها مخاوفى ، فكان ما قاله فى النهاية هو:

ـ « ما الذى فى وسعنا بعد التفتيش الدقيق ؟ لا شىء فى الواقع .. اعتقادى الخاص هو أن هذه مجرد جمعية بها أعضاء غريبو الأطوار .. إنهم يمارسون أى شىء قريب من اليوجا أو هذا الهراء .. لو فكرت دون تحيز يا (رفعت) لوجدت أنه لم يحدث أى شىء يعاقب عليه القانون على الإطلاق .. هناك فتى تلقى صفعتين ، لكن من يضمن لك ألا يصفعك أحدهم فى الشارع الآن ؟ يمكنه أن يحرر محضرًا فى القسم لو أراد لكن لا شىء سوى هذا .. »

ـ « يا سلام ! ومخبركم الذى اختفى ؟ »

ـ « أعتقد إنه لا علاقة لاختفائه بما يحدث .. إن مهنتنا بطبيعتها خطرة .. على كل حال نحن نراقب المكان بعناية .. وسوف يرتكبون غلطة ما .. »

كان هذا ما لديه ليساعدنى .. فى الوقت الحاضر على الأقل .. سيكون علىّ أن أعنى بنفسى فى الفترة القادمة ..

هنا تذكر شيئًا ، فأضاف :

ـ « هناك خبر أعتقد أنه يهمك .. لا أدرى دوره فى القصة ، لكن هناك فتاة اسمها (غادة عبد الوهاب) مختفية منذ أيام .. هذه الفتاة كانت تعمل سكرتيرة لدى الجمعية ! يقول أهلها إنها ذهبت للعمل صباحًا ولم تعد .. يقولون فى الجمعية إن الفتاة تضايقت بسبب ملحوظة وجهت لها ، وغادرت مقر العمل غاضبة .. »

صحت فى جنون :

ـ « كل هذا وتعتقد أنها مصادفة ؟ »

فى حزن قال :

ـ « ليس فى يدى إلا التحريات .. لو اعتقدت أننى سأحرق هؤلاء القوم بالكهرباء إلى أن يعترفوا بأنهم سبب اختفائها والمخبر ، فأنت مخطئ .. »

* * *

أمام كوب من الشاى أجلس وحدى أسترجع فكرة الغول فى الوجدان الشعبى وفى الأساطير ..

« لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك .. »

هكذا تحيى السيدة العجوز بطلنا عندما يقابلها فى ذلك المكان القفر .. هكذا يدرك البطل أنه وقع فى حبائل غول .. نفس

الشىء يتكرر فى الأدب الغربى مع .. « فى فى فو فام .. أشم رائحة رجل إنجليزى .. » كما قلنا ..

فى سيرة (سيف بن ذى يزن) يحمل (عيروض) الخائن بطلنا (سيف بن ذى يزن) فيلقى به فى وادى الغيلان .. ويلقى بحبيبته (شامة) فى وادى اللودان (العمالقة) .. إن حظ (شامة) أفضل نوعًا لأن هؤلاء العمالقة يحملون عقول أطفال .. وهم يحملونها إلى الملك لتخدمه لا أكثر ..

المشاكل الحقيقية تبدأ مع سيف بن ذى يزن ، الذى يفتح عينيه فى الصباح ليجد أنه فوق شجرة ، وأن هناك شخصًا غريب الخلقة يأتى نحوه .. هذا الشخص له أنف طويل كالمنقار وأنياب بارزة من شفتيه ، وله اذنان كبيرتان تتدليان جوار رقبته ..

لم يكن هذا الشخص لطيفًا كذلك لأنه راح يهز الشجرة وهو يطلق عواء منكرًا .. تشبث (سيف) بالأغصان وقد تملكه الهلع .. هنا يفاجأ بأن أسوأ كوابيسه تحقق لأن عشرة من هؤلاء التفوا حول الشجرة وراحوا يهزونها .. مهددين بأن يقتلعوها من موضعها ..

هكذا عرف سيف أنه فى وادى الغيلان فلا حول ولا قوة إلا بالله ..

. هنا تأتى النجدة فى صورة سيدة عجوز .. دائمًا تلك العجوز المنقذة ذات الشعر الذى له لون اللبن .. كانت أوامرها صارمة حتى أن الغيلان تراجعت عن الشجرة ..

- « انزل أيها الملك (سيف) .. أنا كبيرة هذه الغيلان وعهد علىَّ أن أحميك منها .. »

هكذا ينزل سيف فى حذر من على الشجرة ، فتقتاده المرأة إلى مغارة كبيرة وتقدم له الفاكهة وتحكى قصتها :

- « كان أبى يحكم بلدة الصخر الأسود بالعدل .. لكن أهل البلدة كانوا أهل سوء فثاروا عليه وكادوا يقتلونه ، حتى فر منهم وجاء لهذا المكان .. »

أمها على النقيض من زوجها النبيل كانت زوجة خائنة .. كانت لها علاقات معينة مع الوحوش فى هذه الفيافى ، من ثم جاء نسلها مسوخًا مخيفة .. هكذا كتب على هذا الوادى أن تعيش فيه سلالة من الغيلان إلى أن يأتى ملك يمنى يدعى (سيف بن ذى يزن) ليهلكهم ..

- « هكذا كتب الله علىَّ أن أنتظر مجيئك لأساعدك وأعينك عليهم ، لعله يغفر لى وينجينى من عذاب النار .. »

هكذا نرى أن الأسطورة العربية جعلت ظهور الغيلان مقرونًا بتزاوج بين الإنسان والوحش ..

على أن أكثر الأساطير العربية ازدحامًا بالغيلان هى (ألف ليلة وليلة) ، خاصة مع السندباد ..

فى الحكاية الثالثة ، يقع بحارة المركب فى قبضة مسخ ضخم أسود طويل كأنه نخلة ، وله عينان كشعلتى نار وأنياب كأنياب الخنازير البرية ، وفمه كالبئر ..

ينجو السندباد من الالتهام بسبب هزاله وقلة اللحم على عظامه ، ولكن بعد فحص مدقق من الغول .. هذا تقريبًا ما يحدث مع (هانسل وجريتل) .. أن النحافة منجية فى الأساطير دومًا ..

تكون الضحية الأولى هي الأكثر بدانة وضخامة .. وهذا الغول المتحضر لا يأكل اللحم نيئا لكن يمرر سيخًا فى الضحية من الحلق ، ويقوم بشيها على النار بأسلوب (شيش كباب) .. ثم ينام متخمًا ويتصاعد شخيره ..

فى الرحلة الرابعة للسندباد موقف مشابه عندما بلغوا جزيرة فقبض عليهم مجموعة من السكان البدائيين ، وأحضروا لهم طعامًا .. الحقيقة أن السندباد يعاف هذا الطعام لكن أصحابه يأكلون منه .. هكذا يدخلون حالة من التخدير تجعلهم يأكلون كالتيوس بلا توقف .. دهنهم يتراكم وعقولهم تنطمس .. حتى يصير الواحد منهم خروفًا سمينًا يذبحونه ويأكلونه ..

وصف (القزوينى) قومًا لهم وجوه كلاب يعيشون فى جزر قرب (زنجبار) .. وهو شىء وصفه كل البحارة القدامى على كل حال .. كانت كل جزر الأرض تعج بوحوش غريبة حسب قصص البحارة ..

الغيلان جميعًا سود البشرة فى الأساطير العربية .. كلهم مجوس .. لابد أن البحارة العرب الذين ارتادوا تلك البحار السحيقة الغامضة رأوا القبائل آكلة لحوم البشر التى تعبد النار وأشياء غريبة أخرى .. ربما وقع البعض فى قبضتهم ونجا .. هكذا عاد ليحكى هذه القصص المخيفة ..

هنا يتدخل الغباء والتعصب العرقى ليلعب دوره المعتاد .. يقول (ألكسندر كراب) وهو مؤرخ غربى متعصب ، يرى باختصار شديد أن العرب لم يكن لهم أى دور فى أى شىء من أى نوع :

ـ « لا يجب أن نعود لعصر الجليد لنعرف من أين جاء القدامى بقصص أكل لحوم البشر .. ما كان على سكان البحر الأبيض المتوسط فى أوروبا إلا عبور مضيق جبل طارق ليجدوا أنفسهم بين قبائل آكلة لحم بشر !! »

هذا يعنى ـ حسب رأى الأخ (كراب) ـ أن الحضارة الإسلامية كانت تمارس أكل لحوم البشر بانتظام ! وهو استنتاج مسل أكثر منه مستفزًا كما نرى ..

أما المؤرخ (جرينباوم) فيرى باختصار شديد أن الأساطير العربية مجرد استنساخ للثقافة اليونانية .. يرى أن بعض الأساطير مشتق من حكاية الإسكندر التى كتبها (كاليس) .. ويرى أن هذه القصة مأخوذة من الإلياذة والمارد ذى العين الواحدة الذى قبض على (أوديسيوس) ورفاقه ..

* * *

غارقًا فى هـذه الأفكار عـن الغيـلان ـ وهى أفكار تثيـر كـل مخاوف الطفولة ـ بدأت أفكر فى الخطوة التالية ..

أعرف أننى سأستمر .. لا أستطيع العودة إلى عنـوان فـى القاهرة يحفظه هؤلاء .. لا أستطيع ممارسة حياة يعرفون كل شىء عنها .. لن أفتح بـاب شقتى بعد منتصـف الليـل لأجـد الزميلين اللطيفين اللذين يزعمان أنهما من (كوم حمـادة) وهمـا ليسا كذلك ..

أعرف أننى سأستمر حتى ينتهى هذا الكابوس ..

* * *

6

كانت (غادة) فى هذه الآونة قد عرفت الكثير من رفيق الأسر ..

كان نادى الغيلان يقوم على جعل النـاس يبحثـون فـى ذواتهم عن الغول المختفى الذى دفنتـه الحضـارة .. هنـاك مـن ينجحـون فى ذلك .. بعد قليل تبدأ تغيرات جسمانية لا شك فيها تطـرأ عليهم .. أولى العلامات هى أنهم يشتهون اللحـم ويكفـون عن الاستحمام .. بعد هذا يبدأ شكلهم فى التغير فعلاً .. كـان القدمـاء يعتقدون أن التهام لحم الموتـى يحـول النـاس إلـى غيـلان .. مـن الواضح أنهم كانوا بعيدى النظر فعلاً ..

هذه هى اللحظة التى تستدعى وضعهم فى الأقفاص كما توضع الوحوش ..

ويطلق على كل واحد منهم اسم (موهول) .. لا تعرف سبب اختيار الاسم لكنه موح ..

أما من يفشلون فى التحول إلى غيلان ، فقد افترض النـادى أنهم عرفوا أكثر مما يجب .. صحيح أنهم ينسون كل شىء ، لكن لا أحد يضمن الذكريات .. لا أحد يضمن ألاعيب العقل الباطن .. المندسون على النادى يوضعون فى هـذه القائمة .. السكرتيرات الخائنات اللاتـى يساعدن على فرار المتسللين يصلحن لهـذه القائمـة ..

وهى (قائمة) فعلاً كما عرفت الآن ..

هكذا يتم وضعهم فى أقفاص الضحايا .. الأقفاص التى تلعب ذات الدور فى قصص الأطفال .. يتم تغذيتهم وتسمينهم بانتظار اللحظة المناسبة ..

اللحظة المناسبة تعنى إطلاق سراحهم وإطلاق سراح الغيلان فى ذات اللحظة وفى مكان مغلق .. القط والفأر معًا فى غرفة مغلقة .. لا تتوقع الكثير من المعجزات ..

وبما أن التغذية غير مضمونة دائمًا ، يمارس الغيلان عادة السطو على المقابر وهى من أقدم العادات المعروفة عن الغيلان ..

الآن تفهم سر السيارة التى تأتى ليلاً محملة بأشياء .. والضباع ؟

لا أحد يعرف .. لكن الأساطير تحكى عن أن الغول يتخذ شكل ضبع أحيانًا ، ولا نعنى بهذا أن هذا هو ما يحدث هنا ..

ولكن من المستفيد من تحويل الناس إلى غيلان ؟ حتى القتلة .. حتى تجار المخدرات .. حتى اللصوص يعملون من أجل هدف منطقى واضح .. الكسب المادى أو المعنوى .. طرق غير مشروعة لكنها مبررة مفهومة .. لكن ما الفائدة التى تعود على أى طرف من هذا ؟ ذات مرة شاهدت فيلمًا يقوم فيه (دراكيولا) بنشر باكتريا

الطاعون فى العالم ، وقد بدا لها هذا المنطق سخيفًا .. لو مات كل البشر بالطاعون فمن أين يأتى بالدماء التى يمتصها ؟

فى الظلام يأتى ذلك الحارس الذى يشبه البشر لكنه ليس مثلهم تمامًا ..

يحمل صحافًا ودلاء مليئة بالطعام .. طعام مغذ كله نشويات وسكريات ودهون .. ويفتح ثغرة فى باب كل قفص ليلقى بالطعام منها ..

(غادة) على الأقل كانت تعرف أن كل محاولات تسمينها قد فشلت .. لا شىء يجدى معها .. إن كانوا سينتظرون حتى تسمن فلسوف ينتظرون للأبد .. كانت أمها تطعمها أطنانًا من المفتقة ومربى (خرز البقر) كى تسمن بلا جدوى .. وقد كانت الأم تؤمن أن الفتاة السمراء النحيلة ليس لها مستقبل من أى نوع فى مصر أو أى بلد عربى آخر .. المجد والسؤدد للفتاة البيضاء السمينة ..

أما آخر ما عرفته (غادة) فهو أن (أحمد) هذا ليس سوى مخبر دسه رجال الشرطة على الجمعية ، لكن أمره افتضح سريعًا ..

لم تخبره أنها ـ على الأرجح ـ هى سبب سقوطه فى الشرك ، لأنها أبلغت عن اختفاء أوراق من مكتبها .

كانت فى مأزق مخيف ، لكنها ـ وهذا هو الغريب ـ كانت ترتجف ذعرًا لا من الغيلان ، بل من غضبة أبيها عندما تتأخر فى العودة مساء ، وعندما لا تبيت فى دارها ليلاً .. سوف تبيت فى قفص ..

* * *

سألنى د. (عامر) وهو يشعل سيجارًا :

ـ « هل تشعر بتحسن يا أستاذ (عزت) ؟ »

قلت وأنا أتحسس رأسى :

ـ « ربما .. لكنى صرت أكثر عصبية .. هناك تلك الرغبة العارمة فى أكل اللحوم .. أكاد لا أطيق الانتظار حتى ينضج اللحم أحيانًا .. »

كنت أسترجع تاريخ د. (سامى) وأتكلم بلسانه .. وقد بدا الرضا على وجه د. (عامر) كما رأيته خلف سحابة الدخان الكثيفة ..

لسبب ما لم يتكلم د. (سامى) ولم يفضحنى .. لا أعرف السبب .. هل لأنه صدق قصتى أم لأنه لم يصدقها لكن جزءًا منه ما زال يحمل لى المودة ؟

قال (عامر) وهو يسحب من السيجار نفسًا عميقًا :

ـ « نحن فخورون بك .. نشعر بأنك أنجب تلميذ لدينا .. بعبارة أخرى ستكون كذلك .. »

ثم جذبنى فى رفق من ساعدى ، وقال :

ـ « ستبدأ الجلسة حالاً .. هيا بنا .. »

هناك جلسنا ودارت تلك الساقية بالشراب المعتاد .. فى كل مرة أجد صعوبة فى التخلص منه .. سوف يلاحظون ما أقوم به بالتأكيد ذات مرة ، ولولا هذه الإضاءة الخافتة المتقطعة لما استطعت لعب هذه اللعبة أبدًا .. لو عرفت محتوى هذا الإكسير فلربما استطعت تناول ترياق مضاد Antidote له .. مثلاً لو كان من مشتقات البلادونا لتحسبت له ببعض البيلوكاربين .. لو كان من قلويدات الأفيون فلربما استعددت بحقنة من النالورفين .. مخدر لا يؤثر فى الحدقتين ويسهل التنويم المغناطيسى الجماعى .. ما هو ؟ لابد أن أستشير خبير سموم ..

فقط أعرف أننى لن أظل أسكب هذا الشراب للأبد ..

الموسيقا نشطة والجلسة مستمرة ..

هناك تطور تدريجى ملحوظ فى أداء د. (عامر) .. هذه المرة يطالبنا بما هو أكثر .. لماذا لا نجرب مذاق اللحم النيئ ؟ لماذا لا نقلد أسلافنا ؟

لما انتهت الجلسة أخيرًا ، تهيأت للانصراف ، لكنه طلب منى أن أنتظر ..

بعد قليل شعرت بمن يضع عصابة على عينى ..

ـ « لا تؤاخذنى .. أعرف أنك ستنسى ما تراه لكننا لا نثق فى ألاعيب العقل الباطن .. »

شعور عارم بالذعر انتابنى وأنا عاجز بهذا الشكل وسط هؤلاء .. هل عرفوا ؟ هل هى لعبة ما ؟؟

شعرت بمن يدفعنى دفعًا للمشى فى ممر غير ممهد .. ثم شعرت بأننا نهبط فى درج .. بعد هذا شعرت بأن هناك من يحملوننى فأطلقت صرخة رعب .. ومن جديد لامست قدماى أرضًا غير ممهدة .. ثم شعرت بأننى أرتفع من جديد ..

قدرت أنهم على الأرجح يقومون بعدة دورات تضليلية كى أفقد حاسة الاتجاه تمامًا .. إنهم يدورون بى فى مكان واحد ..

ثم شعرت بأننى أحمل من جديد ..

هذه المرة وقفت على أرض صلبة لم أعهدها من قبل ..

وشعرت بالعصابة تنزع عن عينى ..

إضاءة زرقاء تغمر المكان .. أشعة فوق بنفسجية على الأرجح ..

المكان أقرب لصرح حفر وسط الصخور .. ومن الواضح أننا تحت الأرض غالبا .. لكن أين ؟

أمامى فى قلب الصرح كان مقعد شامخ يشبه العروش .. وعلى المقعد يجلس رجل غربى مسن له ملامح غير مريحة على الإطلاق .. يجلس فى وضع ثابت غريب وقد ارتدى بدلة من طراز عتيق ..

هذه مومياء محنطة ..

وسمعت صوت (عدنان) يقول فى تهيب ووجل :

ـ « هذا هو جدنا الأكبر .. اللورد (إيمرى) !!! »

* * *

7

عندما جاءت (هيلين هوجورث) إلى مصر لم تكن وحدها ..

لقد نفذت الجزء الخاص بها فى الوصية حرفيًا .. كان معها صندوق خشبى محكم الغلق على ظهر السفينة ، وهذا الصندوق كان يضم مومياء اللورد (إيمرى) التى تم حفظها بطريقة سرية أشرف عليها المحامى (جيمس كلايد) ..

هذه المومياء هنا منذ جاءت إلى مصر حتى اليوم ، لكن البلى بدأ يدب فيها ؛ لذا قام الورثة باستعمال الأشعة فوق البنفسجية لضمان خلوها من البكتريا والفطريات ..

وارتجفت لفكرة أن هذا الشىء ظل هنا فى قبو الفيلا كل هذه السنين .. لا غرابة فى أن الضابط المصرى الشجاع (منصور) مات رعبًا عندما عرف عوالم زوجته الخفية ..

قال د. (عامر) :

ـ « من هنا نستمد إلهامنا وعزمنا .. »

اللورد (إيمرى) عجوز نحيل عصبى .. له حاجبان كثان بريطانيان جدًا يوشكان على تغطية عينيه .. من تحتهما عينان رماديتان كاسرتان تشعان نارًا .. الفم قاس رفيع .. الأطراف نحيلة أقرب إلى المخالب ..

هذا عجوز كريه لا يوحى بأية شفقة أو مودة ..

وهنا تذكرت شيئًا .. أنا لم ألق قط رئيس مجلس إدارة الجمعية .. يمكن القول بلا خطأ كبير إن رئيس مجلس الإدارة هو هذه المومياء !

* * *

قال لى (عادل) وهو يقرع الجرس :

ـ « يمكنك الكلام معه بصراحة .. لكن ليس فى مكتبي .. »

دخل الشرطى ودق الأرض بكعبه ، فأمره (عادل) أن يدخل (حنفى طفاشة) ..

ظللت جالسًا أنتظر فى عصبية ظهور هذا الرجل ذى الاسم العبقرى .. تخيلت أنه متحور مثل (الرجال إكس) لتتحول يده إلى طفاشة .. ربما هو طفاشة آدمية عملاقة ..

ثم رفعت رأسى لأرى الرجل ..

حقًا .. إن الأسماء تخدع أحيانًا ..

كان هذا أصغر رجل قابلته فى حياتى ، وبرغم مظهره الوديع كانت له عينان شرستان شديدتا الذكاء .. أما ثيابه فتدل على أنه لا يحظى بسعة الرزق .. يداه مسودتان تشيان بعمل يدوى .. وقدرت أنه فى الخامسة والأربعين من العمر ..

لم يرفع (عادل) عينيه عن الأوراق .. واكتفى بأن يقول :

ـ « ما هذا الذى ارتكبته يا (حنفى) ؟ »

مد الرجل كفيه المسودين ، وصاح فى عدم تصديق :

ـ « لم أفعل شيئًا يا سيدى .. أنت تعرف أننى أعيش بما يرضى الله .. ومن اليد إلى الفم .. »

مد (عادل) يده فى الدرج وأخرج حفنة أوراق مالية وضعها على المكتب وقال للرجل :

ـ « نحن قبل سوانا نعرف هذا .. لو لم نعرفه لكانت كارثة .. خذ .. بارك الله لك ! »

إذن لماذا يناور ويلعب بأعصاب الرجل ؟ يبدو أنها عادة بوليسية لا أكثر ..

ثم نظر لى ، وقال :

ـ « (حنفى) كان لص منازل لا يستعصى عليه أى بيت فى الإسكندرية .. أبرع (هجام) عرفته المدينة منذ عقود .. لكننا قبضنا عليه ودخل السجن .. بعدها تعهد بأن يستقيم وساعدته كثيرًا حتى صارت له ورشة مفاتيح .. صحيح أنها تدر رزقًا بسيطًا لكنه حلال .. أليس كذلك يا (حنفى) ؟ »

راح (حنفى) يدعو له ويلثم يديه ..

قال (عادل) وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « د. (رفعت) قصدنى فى خدمة .. هذه الخدمة تحتاج إلى مواهبك .. عليك أن تنفذ ما يقول وتذكر أنك مدين لى بخدمة .. »

نظر لى (حنفى) فى عدم فهم ..

قال (عادل) وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « صديقى د. (رفعت) سوف يأخذك إلى مقهى فى الخارج حيث يشرح لك ما يريد .. فقط أنا لم أقل شيئًا ولم أطلب شيئًا ولا أريد إلا أن تتم المحادثة بعيدًا عني .. »

لكن الرجل كان متوجسًا بحق .. هذه مقدمات غريبة فما نوع الخدمة يا ترى ؟

قال له (عادل) :

ـ « هلم .. فى الخارج سوف تفهم كل شىء .. تذكر يا (حنفى) .. أريد أن يرضى الدكتور عنك ويخبرنى بهذا ! »

ثم لوح بإصبعه منذرًا وكرر التحذير :

ـ « (حنفى) !!! »

مد الرجل يده المفتوحة إلى عنقه ، وقال فى صدق :

ـ « رقبتى .. »

* * *

لم تكن مهمتى سهلة حيث جلسنا على ذلك المقهى ، وقد تراصت على المائدة الرخامية أقداح القهوة وأكواب الشاى وأعقاب التبغ ..

قال لى للمرة الألف :

ـ « أنا تبت يا دكتور .. من الواضح أنكم لا تصدقون هذا .. »

قلت له :

ـ « ونحن نصدق هذا .. أنت مكلف بهذه المهمة من قبل الشرطة ذاتها .. أنا لا أستطيع القيام بها بحالتى الصحية السيئة وانعدام خبرتى .. سوف أفسد الأمر كله ، لكنى واثق من أنك تعرف كيف تتصرف .. »

هنا سحب نفسًا عميقًا من لفافة التبغ التى فى يده ، وضيق عينيه ، وسأل فى حنكة :

ـ « كم ؟ »

أخيرًا ! لقد زال الجدار الجليدى !

وعدته بمبلغ مجز قبل التنفيذ ومثله لو نفذ العملية ..

ـ « عليك أن تبدأ في النهار .. لأننى أعتقد أن أحداثًا كثيرة تدور فى هذه الفيلا ليلا .. كل شىء يخبرنى أن الفيلا تكون فى أهدأ حالاتها صباحًا .. »

وشرحت له كل شىء بالتفصيل .. ليس بوسعى أن أشارك فى هذه المهمة إلا بالنصائح ..

* * *

8

يبدو أن الحارس قرر أنه سمن بما يكفى ..

كانت (غادة) غافية فى قفصها تعانى تقلصات أمعائها .. لو حسب هؤلاء الناس أنها ستقضى حاجتها فى قفص مفتوح فهم مخطئون ..

هنا رأت الحارس يدخل ويمشى بين الأقفاص .. يفتح قفصًا ما .. تسمع صوت الأقفال والجنازير .. هل هو قفصها ؟

لا .. لم يكن كذلك .. كان قفص (أحمد) جارها .. ورأت الحارس يجر الرجل جرًا فى الظلام .. يجره إلى المسافة بين الأقفاص فيلقيه هناك ، وكان الهلع قد استبد بالرجل فلم يعترض ولم يقاوم ..

الحارس يتجه إلى الأقفاص المقابلة .. الغيلان بدأت تزأر وتعوى وتهز القضبان هزًا .. يفتح الرجل الجنازير .. كلينج .. كلانج .. وتخرج الغيلان ..

إنها تتواثب عبر المساحة الخالية .. لا ترى معالمها بدقة بسبب الظلام ، لكنك تهابها وتخشاها .. والزئير يتعالى ..

ـ « هلم يا موهول .. وأنت يا موهول .. ومعك موهول ! »

ـ « أخيرIIIIIIIIIIIIIIIIIIII.. »

أطلق أحمد صرخة أخيرة ، ثم انقضت عليه تلك الأشباح العملاقة .. لم يعد ظاهرًا من جسده شىء ، وتعالت أصوات القضم والمضغ والتمزيق ..

(غادة) راحت تتشبث بالقضبان غير مصدقة أنها ترى ما تراه ..

فقط راحت تنشج وتصرخ :

ـ« بابا ! أغثنى ! »

وتصرخ .. وتصرخ .. ثم سقطت فاقدة الوعى ..

* * *

لكن بابا لم يأت للغوث ..

كان المنقذ أغرب شخص يمكن أن تتخيله ..

هو ذا (حنفى طفاشة) يراقب الفيلا وقد بدأت الغريزة القديمة تتحرك فى نفسه .. عاد الهجام القديم يتحرك وتدب فيه الحياة ..

لقد أدرك على الفور أن النهار هو أفضل أوقات الاقتحام فعلاً .. الليل مزدحم بنشاطات غريبة لا يقرها القانون ، وربما هى على الأرجح رهيبة ..

بعين خبيرة راح يراقب مخارج ومداخل الفيلا .. وقدر أن أفضل الأماكن للاقتحام هى تلك النوافذ المنخفضة التى تقود إلى القبو غالبًا ..

كان عليه أن ينتظر حتى الصباح ، وأن يعدّ للأمر عدته ..

وفى الحادية عشرة صباحًا تلفت حوله ، ثم تسلق السور وراح يركض كأنه جندى كوماندوز بين الأشجار .. الصمت بليغ يوحى بأنه لا يوجد شخص واحد حى فى هذا المكان ..

أخيرًا بلغ النافذة المختارة فأخرج ما يحمل من معدات ، وعالج المزلاج حتى استطاع أن يزيحه لأعلى من الخارج .. ثم رفع النافذة .. وفى لحظة حشر جسده الصغير داخلها ..

إنه الآن داخل الفيلا فعلاً ..

أشعل كشافه الصغير .. إنه فى قبو كما توقع .. هناك صناديق عتيقة من الورق المقوى .. هناك زجاجات .. هناك أثاث ..

راح يستكشف المكان فى تؤدة ..

فى نهاية القاعة هناك درج يقود لأعلى .. لكنه واثق من شىء واحد .. هناك طريقة خفية للخروج من هنا عن غير طريق الدرج .. بعبارة أخرى هناك قاعة سرية تتصل بهذه ، ولهذا فشل رجال الشرطة فى العثور على شىء ..

الدكتور النحيل قال إنهم حملوه حملاً أكثر من مرة ، وإنهم كانوا يمشون به فى طريق غير ممهد .. هذا يشير إلى فتحة فى الجدار تقود إلى ممر سرى صخرى ..

راح يمسح الجدران فى حذر .. يمرر يده عليها .. لا شىء ..

هناك حبل يتدلى من السقف فيه خطاف .. هذه الأشياء معروفة فى البيوت التى تعنى بذبح الخراف فى البيت ذاته .. لكن ماذا لو جذبنا الخطاف ؟ لا شىء ..

راح يجرب أن يجر الخطاف ليرى المدى الذى يبلغه فى أى اتجاه ، وإن بدأ يشعر بعصبية لهذا الصمت .. ما بال هؤلاء القوم ؟ هل هم موتى ؟ أكثر البيوت عزلة لابد أن تسمع فيه صوتًا من آن لآخر ..

ثم خيل له أنه سمع صرخة ..

صرخة قادمة من وراء جدار .. الجدار الشرقى بالتحديد ..

اتجه إلى هذا الجدار وقرع عليه عدة مرات ، ثم عاد تفكيره إلى الخطاف .. لو جذبنا هذا الخطاف ليلمس الجدار فأية نقطة يلامس ؟

هناك مسمار محوى مهمل مثبت هناك .. لكن الخطاف يلامس هذا المسمار ويمكن أن يلتف حوله .. فلنفرض أنها طريقة تبقى بابًا بعينه مفتوحًا أثناء الدخول منه .. شىء يشبه (شنكل) النافذة ..

هكذا مد يده وراح يعبث فى المسمار .. وجد أنه قابل للانتزاع .. أخرجه من موضعه ..

جميل ! هذا ثقب مفتاح ! ليس هذا جدارًا إذن بل هو باب ..

شاعت ابتسامة خبيثة على وجهه وهو يتفحَّص الفتحة .. لن يجد المفتاح لكن منذ متى يستعصى ثقب مفتاح على (حنفى طفاشة) ؟ إنه لم يتعذب فى السجن من أجل لا شىء ..

هكذا راح يعبث فى الثقب بأدواته الجراحية الدقيقة .. وهنا بمعجزة ميكانيكية ما فوجئ بأن الثقب يستجيب .. تحرك الجدار .. دفعه بكتفه فوجد أنه يدور كأنه باب عملاق فعلاً ..

لكن لابد من تثبيت المسمار فى موضعه وتثبيت الخطاف له .. واضح أن هذا ضرورى كى لا يجد المرء نفسه سجينًا ..

ونظر حوله فى قلق ..

المكان موجس مرعب .. وهو وحيد .. ترى كم من الوقت يجب أن يمر قبل أن يفاجئه أحدهم وهو يمارس هذا النشاط المريب ؟

على كل حال وارب الباب العملاق ودخل ..

بالفعل كانت هناك درجات حجرية تقود لأسفل .. هناك مصابيح كهربية خافتة تذكره بقلب الهرم الأكبر الذى دخله عندما كان متاحًا للناس جميعًا .. ثم هناك طريق حجرى غير ممهد يمتد بضعة أمتار ، بعدها تجد مدخلاً إلى اليمين يقود لقاعة صغيرة .. وهناك على اليسار مدخل مغلق بقضبان حديدية .. فقط يشم من ورائه رائحة كريهة فعلاً .. نفس رائحة قفص الأسود فى حديقة الحيوان ..

كلا .. هو غير راغب فى تجربة هذا الاحتمال الآن ..

كانت المطواة معه .. لم يتخلَّ عنها منذ دخل السجن وغادره .. لذا فتحها بيد واحدة على طريقة المحترفين التى يجيدها ، ومشى محاذرًا نحو القاعة الصغيرة على اليمين ..

هناك إضاءة زرقاء تغمر المكان ..

هكذا عرف أنه فى المكان الصحيح ..

دخل أكثر ، فرأى أنها قاعة حجرية .. فى صدرها يجد ما يشبه المحراب .. وفى قلب المحراب مقعد تجلس عليه جثة رجل (خواجة) بكامل ثيابه ..

جثة مرعبة الشكل فعلاً .. لكنها جثة .. بالضبط كما وصفها الطبيب ..

فى هذه الإضاءة الخافتة تبدو له حية بشكل ما .. حية ميتة معًا .. وهذا مفزع إلى درجة لا تصدق .. لهذا السبب تبعث فينا التماثيل الشمعية تلك الرجفة الباردة .. لأنها حية وميتة معًا ..

لكنه يعرف ما يجب عمله ولماذا أتى هنا ..

ومد يده يفك الحقيبة المعلقة تحت إبطه ..

أخرج البلطة الصغيرة ..

ورفعها ..

* * *

9

الآن جاء الجزء القذر من المهمة ..

لقد انهال بالبلطة على المومياء يحطم ويمزق ويفتت .. وهو لا يكف عن ترديد آية الكرسى .. لقد كان لصًّا لكنه متدين فى أعماقه ، وكان لا يطيق فكرة التمثيل بالجثث .. لكن الطبيب قال له إن هذا يخلص الناس من شر مستطير .. قال له إن بعض الناس اتخذ هذه المومياء صنمًا ..

ـ « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. »

مومياء اللورد إيمرى تتهاوى .. من الغريب أن ترى مدى الهشاشة التى كانت فيها بعد مئة عام من التحنيط ، واللص التائب مستمر فى عمله بحماس وهو يلهث والعرق يبلل ظهره ..

ثم فرغ من هذا فأخرج (الجركن) الملىء بالكيروسين وسكبه على البقايا ..

أشعل عود ثقاب وقربه من الكيروسين وراقب اللهب الأخضر المزرق ينتشر فى السائل طيب الرائحة ..

هنا حدث شىء سوف يذكره فى كوابيسه ما عاش ..

لقد كان الرأس يصرخ .. يتلوى ويصرخ .. لم يكن هذا وهمًا .. لم تصنعه النيران ..

الرأس الذى هشّمه أجزاء ، كان يعوى ألمًا على الأرض وهو يتلظى بالنار ..

وهنا فقط انفتحت أبواب الجحيم ، لأن الصراخ استدعى صراخًا مماثلاً من القاعة المجاورة ، وبدا كأن ألف شيطان يعوى ألمًا ..

ألعن جهاز إنذار يمكن تخيله ..

* * *

جرى خارجًا من القاعة الصغيرة ، وراح يركض فى الممر قاصدًا الباب الحجرى ..

- « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! »

لكن أنفاسه المتلاحقة لا تسمح له بأن يلفظها بشكل صحيح ..

كانت الضوضاء عامة وأدرك أن الجميع قد استيقظ ليفهم ما هنالك ..

خرج من الباب .. فأزاح الخطاف .. هنا وجد أن الباب عاد لوضعه السابق .. لقد انغلق فصار مجرد جدار برىء المنظر ..

الصراخ يتعالى من وراء الجدار ..

جرى إلى النافذة التى دخل منها فوثب وثبة واحدة ألقت به فى الحديقة ..

راح يركض بين الأشجار نحو السور .. هنا سمع من يصيح :

- « هذا هو ! لا تدعوه يهرب ! »

ورأى رجلاً وقورًا يبدو فى عينيه توحش غريب يركض نحوه ..

هنا تذكر أن البلطة ما زالت فى يده ..

لا يدرى كيف طوحها ولا كيف هوت على رأس مهاجمه ..

لقد جعله الخوف وحشًا ..

دار حول نفسه متأهبًا لمهاجمة أى شخص آخر ، فلم ير أحدًا ..

وثب فوق السور ، وسرعان ما كان يركض فى الشارع ..

توقع أن يسمع صرخة (حرامى) التقليدية التى تعقد الأمور وتجعل النخوة تتحرك فى نفس كل من يلقاه .. لكن شيئًا من هذا لم يحدث ..

* * *

هذه كانت القصة كما حكاها لى على المقهى وهو يرتجف ..

طلبت له حجرًا من (المعسل) وكوبًا من الشاى لكنه قال :

- « أفضل أن يكون الشاى بحليب مع بعض الشطائر .. عندما أخاف أشعر بالجوع .. »

طلبت لهذا اللص الخائف ما أراد ، وقررت أن أنهض لأتصل بـ (عادل) .. لقد صار الأمر واضحًا بصدد القبو السرى لهذه الفيلا .. أعرف يقينًا أن تفتيشه سيقدم بعض المفاجآت السارة ..

ـ « هل تعرف كيف تعود لتلك القاعة ؟ »

ـ « عيب يا دكتور .. طبعًا.. »

ـ « أى أنك ستقود رجال الشرطة لها ؟ »

ـ « بالتأكيد .. »

فقط آمل ألا يغيروا كل شيء بسرعة .. لقد عرفوا أن هناك من وجد سر أسرارهم ، ولسوف يتحركون بسرعة .. فقط أعتقد أنهم فى حالة انعدام وزن .. هناك احتمال لا بأس به أن تكون اللعنة قد زالت بعد احتراق المومياء المشئومة ..

نهضت بحثًا عن هاتف عمومى .. لم يكن هناك واحد فى المقهى لذا خرجت إلى الناصية ، وبالطبع كانت الهواتف فى ذلك الوقت هواتف عملة لا تعمل بالبطاقات الذكية .. رحت أحاول طلب (عادل) فى المديرية .. هنا ..

فوجئت بهذين الرجلين الضخمين داكنى البشرة يقفان جوارى .. النظارات السوداء جعلتنى أعرف من هما فعلاً .. فى وقفتهما نوع من التحرش لم يرق لى ..

وكنت أدرك حقيقتهما .. هذان غولان لم يتحولا بالكامل .. لم يصيرا مسخين ، لكنهما كذلك لم يعودا بشريين .. هذه الطبقة تعمل كـ (بودى جارد) أو حراسة خاصة على الأرجح .. ربما كان هذان هما رجلا (كوم حمادة) اللذان زارانى كـ (رفعت) ..

قال لى أحدهما بصوت غليظ :

ـ « د. (رفعت) .. يريدونك فى الجمعية .. الآن ! »

وضعت السماعة وقلت فى ضيق :

ـ « ليس هذا أوان اجتماع .. ثم .. كيف وجدتمانى ؟ »

ـ « نحن نجوب شوارع الإسكندرية منذ ساعات بحثًا عنك .. إنه حظنا الحسن .. »

لكنى نظرت إلى يده فوجدت جهازًا غريبًا ..أشبه بقرص ساعة يخرج منه هوائى لا سلكى .. أعتقد أنهم يستعملون نوعًا من أجهزة اقتفاء الأثر .. أجهزة تفتش عن هالة (كيرليان) إياها وسط الجموع .. لا أصدق أنهما وجدانى بالصدفة ..

شاعرًا بأننى معتقل مشيت معهما إلى سيارة سوداء تقف على بعد خطوات . لا وقت لإبلاغ (حنفى) دعك من أنهم يعرفونه الآن ولو وجدوه لما تركوه ..

جلست فى المقعد الأمامى على حين جلس أحدهم فى المقعد الخلفى كأنه يراقبنى .. أشعر بأننى عضو مافيا تقتاده الأسرة إلى حيث تتخلص منه سرًا لأنه خانها .. هل هذا صحيح ؟

بعد قليل قال السائق دون أن ينظر لى :

ـ « لقد مات الأستاذ (عدنان) ! »

توقعت هذا .. عندما قال (حنفى) إنه هشم رأس رجل وقور فارع الطول لم أفكر مرتين .. لو قال إنه هشم رأس رجل يبدو أنه جاب العالم لقلت إنه د. (عامر) ..

لكنى أبديت الذهول كما يجب ..

ـ « لص .. تسلل للفيلا وحاول الأستاذ (عدنان) مقاومته لكنه هشم رأسه ببلطة .. »

أبديت أسفى وذهولى .. آخ ! لم يعد من أمان فى هذا العالم ! النفوس صارت شريرة هذه الأيام ..

ـ « وهل أبلغتم الشرطة ؟ »

قال الجالس خلفى فى ثبات :

ـ « لا وقت لهذا الهراء .. المشكلة هى أنه لابد من نائب جديد لرئيس مجلس الإدارة .. »

ـ « وهل هذا وقته ؟ »

ـ « نعم هو وقته .. لا يمكن أن نستمر من دون نائب .. »

إذن هم فى مأزق .. لقد فقدوا لورد إيمرى الرئيس ونائبه .. ترى هل يرشحون (عامر) أم (جمال) ؟

قال الرجل الجالس خلفى :

ـ « د. (عامر) يرى أنك الأصلح لهذا المنصب ! نحن ذاهبون لمقابلة رئيس مجلس الإدارة كى يصدر قرار تعيينك !! »

!.........

* * *

10

كان الليل قد أرخى سدوله عندما أحاطت قوات الشرطة بالفيلا ..

هناك الكثير من الكشافات وأضواء سيارات الدورية عديدة الألوان .. هناك أكثر من (بوكس) وأكثر من رتبة ضخمة .. هذه المرة يبدو أن (عادل) جاء ليبقى ..

وسط الزحام يقف أهم شخص هنا وهو (حنفى طفاشة) يرتجف ذعرًا .. إنه الدليل الوحيد لهذه القوات، وهو لم يعتد قط أن يقف خلف مدفع الحكومة بل أمامه .. لذا راح يقاوم رغبته فى الفرار ..

الناس يتزاحمون فى فضول خارج الفيلا آملين فى أن تقع مذبحة .. فلا تنس أن هناك سيارتى إسعاف .. لم يبق إلا أن تحوم طائرتا هليوكوبتر لنجد أننا فى فيلم أكشن أمريكى ..

ماذا يحدث هنا ؟

من عربات (البوكس) يقفز الجنود شاكى السلاح .. بينما تتخذ بعض القناصة مواضعهم كأنها حملة لاعتقال (خط الصعيد) نفسه ..

يفتح الخادم الباب مذهولاً لكل هذا الصخب فيندفع الجنود على الفور، ويخرج د. (عامر) وعلى وجهه مزيج من الرعب والغضب .. يرى (عادل) فيصيح :

ـ « أعتقد أيها العميد أننا أغلقنا هذا الباب نهائيًا .. »

قال له (عادل) دون أن ينظر له :

ـ « قد جئنا نفتح عدة أبواب هذه المرة ! »

كان يريد أن يقول تعليقًا من تلك التعليقات الساخرة ذات المعنيين التى تقال فى الأفلام البوليسية ..

ودس تحت أنف (عامر) و(جمال) إذن التفتيش الجديد، ثم صاح بالرجال طالبًا أن يفتشوا الفيلا ..

توتر (عامر) وهو يرى أن جُل اهتمام الرجال كان النزول إلى القبو ..

ـ « أرى أنك ترتكب خطأ قانونيًا جسيمًا .. »

ـ « ربما ..عندى ما يدعونى للاعتقاد أننا سنجد أشياء مهمة جدًا .. »

يصيح صائح من القبو :

ـ « هناك جثة مغطاة يا سيدى ! »

ابتسم (عادل) فى ثقة، وقال :

ـ « ترى هل كنتم تنوون تحنيط (عدنان) هو الآخر ؟ أم كنتم ستطعمونه لحديقة الحيوان تلك ؟ »

* * *

معصوب العينين أمشى فى ممر غير ممهد ..

من جديد يتكرر سيناريو حملى ثم إنزالى .. (شايلينى شيل) .. التعبير الشعرى المعبر عن العجز الذى يليق بما أعيشه الآن ..

خطر لى أنهم حمقى .. لو كانوا يرغبون فى تعيينى نائبًا فقد حان الوقت كى أعرف ما يعرفه النائب ..

أخيرًا يزيحون العصابة عن عينى فأجد أمامى بابًا ..

أجتاز الباب فأرى أننى فى مكتب عملاق .. مكتب لا يمكن أن أكون قد رأيته أو رآه الأخ (حنفى) أمس .. لا يمكن أن يمر بلا تعليق ..

مكتب قريب الشبه من مكتب الفوهرر فى أفلام الحرب العالمية الثانية ..

هنا يجلس رئيس مجلس الإدارة الذى حسبته لورد (إيمرى) نفسه ، وكنت مخطئًا كالعادة ..

على الجدار لوحة عملاقة تمثل لوحة (مايكل أنجلو) على سقف كنيسة (ستسين) .. يوم الدينونة .. تلامس الأصابع .. إلخ .. لكن ..

وقعت عينى على موضع المسيح الشهير فى الصورة ..

لم يكن هذا هو المسيح .. هناك اختلاف وقد توقعته ..

أمشى فى حذر بينما يتصاعد الصوت الهادئ الوقور :

ـ « تعال يا أستاذ (عزت) .. »

إنه ذلك الرجل شديد الضخامة خلف المكتب .. الآن أتأكد يقينًا من أنه ليس د. (لوسيفر) .. د. (لوسيفر) لا يتخلى أبدًا عن لهجته الشرق أوروبية على سبيل العلامة المسجلة ، دعك من أننى لم أسمعه قط يتكلم بالعربية على قدر ما أذكر ..

الأهم هو أننى خمنت من هو ..

أمام الرجل أباجورة ، وهذه الأباجورة مسلطة لتعمى الضيف ولا تظهر المضيف .. مثلما يحدث فى أفلام الجاسوسية الرديئة ..

ـ « لأسباب مؤسفة اعتدى أحدهم على اللورد (إيمرى) .. مزق المومياء وأحرقها .. ثم قتل (عدنان) .. سوف نجد هذا الكلب فيما بعد ، لكن الآن نحن فى حاجة ماسة لنائب رئيس جديد ، وقد اقترح د. (عامر) اسمك على الفور .. يقول إنك أصلح واحد لهذا الدور.. »

كدت أقول إن الرجل يبالغ ثم وجدت أنه لا مجال للتواضع السخيف على غرار (من يشهد للعروس ؟) و(هئ هئ .. هؤلاء القوم

يبالغون) .. إلخ .. هؤلاء جادون وخطـرون ومن الخير لى أن أكون جادًا مثلهم ..

كنت أقترب أكثر ..

ليتنى أرى وجه هذا الرجل .. لكنه يلعب معى لعبة الظلال بلا عدل ..

قال لى بذلك الصوت الهادئ الوقور :

ـ « لكن لدى تحفظات معينة على شخصك .. أنت تعرف أننا نحاول أن ننشر عقيدة معينة فى هذا العالم .. العقيدة التى بدأها لورد (إيمرى) وحاول جاهدًا أن يجد تلاميذ مخلصين لـه .. هذه رسالة مستمرة ، لكننا تلقينا ضربة قاصمة بتدمير المومياء .. كانت هى الطوطم الذى يرمز لجماعتنا وكفاحنا .. الآن يقترحون علىَّ اسمك .. وأنا أقبل هذا وأفهمه .. لكن بعد أن تجيب عن عدة أسئلة .. »

وبلغ الأدرينالين مداه فى عروقى ووضعت يدى فى جيبى .. ترى ما نوع الأسئلة ؟

ـ « السؤال الأول هو : لماذا لم تعد تنطق الحروف بتلك الطريقة المضحكة التى كنت تفتعلها فى البداية ؟

« السـؤال الثـانى هو : لمـاذا ناداك رجالى باسم د. (رفعت) وهم يقتادونك إلى هنا فلم تعترض ؟

« السؤال الثـالث هو : كيف كـان لذلك اللص أن يجد مخبـأ المومياء .. قدس الأقداس .. من دون أن يعاونه خائن ما ؟

« السؤال الرابع هو : لماذا نسيت أن تصبغ شعرك كما اعتدت ؟ إن الجذور واضحة أمام عينى وكلها شائبة .. »

تراجعت إلى الخلف مذعورًا .. هذا كمين إذن .. الأسئلة كثيرة جدًا ولا أتذكرها كى أبرئ نفسى .. لكنى على الأقل تذكرت السؤال الأخير فقلت :

ـ « ومن قال إننى لا أصبغ شعرى ؟ إننى مجرد عجوز متصابٍ آخر .. »

ثم تذكرت السؤال الثانى فقلت :

ـ « سمعتهم ينادوننى (عزت) .. إنها تلك الأسماء التى حول الأتراك تاءها المربوطة إلى تاء مفتوحة .. وحرف العين يخدع الأذن .. »

قال الرئيس بذات الهدوء :

ـ « على كل حال كان (عامر) أحمق .. كلهم حمقى .. أنت سببت ضررًا بالغًا لهذا النـادى لكن أخطاءنـا قابلـة للتصحيح .. وغدًا يبدأ نادى الغيلان فى مكان آخر .. »

ثم أزاح ضوء الأباجورة ليسقط على وجهه ..

هنا عرفت من هو .. وقد توقعت ذلك عندما رأيت اللوحة ..

أكره أن أكون على صواب طيلة الوقت ..

لن أغادر هذا المكان أبدًا ..

* * *

11

أبراكساس Abraxas : لا أحد يعرف مصدر الكلمة وربما جاءت من سحر القبالة اليهودى . لكنها كلمة بالغة الأهمية فى عالم السحر الأسود . الصورة المعتادة لهذا الشيطان هى جسد إنسان ورأس ديك مع قدمين أقرب للثعابين التى تنتهى بعقارب ، ويحمل درعًا أو سوطًا . قيل إنه شيطان. فيما مضى كان الكتاب المسيحيون يعتبرون الآلهة الوثنية مجرد شياطين خدعت البشر ليعبدوها .. ولهذا قيل إنه من آلهة مصر القديمة الوثنية (لا صحة لهذه الفرضية) .. وقد كتب عنه العالم النفسى (كارل يانج) فى كتاب شهير ، ووصفه بأنه ملك العالم السفلى ، وبأنه هو الشر الذى لا يمكن استيعابه بالعقل البشرى .. ويقال إن لفظة (أبراكادابرا) التى يستعملها السحرة مشتقة من اسم هذا الشيطان .

موسوعة الظلام

* * *

فقد المجند الريفى أعصابه عندما رأى الأقفاص ووراء قضبانها تلك الغيلان التى تزأر .. هكذا أجهش فى البكاء الهستيرى ، وهو يفرغ خزانة مدفعه الرشاش فيها ..

والتفت باقى الجنود إلى الصف الثانى من الأقفاص لولا أن صاح الضابط :

ـ « لا تطلق النار! هؤلاء بشر طبيعيون ! »

كانت هذه (غادة) تصرخ ، وقد ركعت على ركبتيها ممسكة بالقضبان عاجزة عن عمل شىء .. هذا عالم يجب أن تؤكل فيه أو تقتل رميًا بالرصاص ككلب ..

كانت تصرخ :

ـ « لا تقتلونا .. نحن مثلكم .. ! »

كلينج كلانج !!

هذا كان صوت جنزير يفك عن قفص أو قفصين ..

والتفت الجنود إلى مصدر الصوت فرأوا ذلك الحارس يتواثب بين الأقفاص ويعالج أقفالها بسرعة البرق .. وصرخ الضابط الشاب :

ـ « من هذا ؟ .. »

رفع أحد الجنود بندقيته لكن الضابط لم يعد واثقًا من شىء هنا .. ربما تقتل بريئًا أو لا تفعل ..

ـ « ارفعوا أيديكم !! »

قالها فى عصبية عدة مرات .. لكن تلك الأشياء التى تحررت من أقفاصها لم تكن تفهم العربية أو تفهمها لكنها غير مستعدة للطاعة ..

هكذا وثبت المسوخ فى الهواء لتجثم فوق صدور الجنود .. كانت ثقيلة جدًا شرسة كالنمور الجريحة .. وتصاعد الصراخ المريع ..

صرخ الضابط وهو يرى رجاله يُمزقون إلى أشلاء :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا .. هذا كابوس .. يجب نسف هذا البيت .. يجب أن .. »

ورفع جهاز اللاسلكى ليطلب مددًا ..

فى هذه اللحظة شعر بأنياب حادة تنغرس فى عنقه .. أخرج مسدسه وأطلق الرصاص لكن بلا هدف .. لا أحد يطلق الرصاص بذراع مفرودة كى يقتل مسخًا يجثم على ظهره .. هذا رأيى الخاص على كل حال ..

أما الجنود الآخرون فقد فقدوا أعصابهم تمامًا ..

وانهمرت الطلقات ..

* * *

كنت أقف بين الجدار وبين السيد رئيس مجلس الإدارة الذى كشف عن شخصيته كما كشف عن شخصيتى .. باختصار كشف شخصيتينا معًا وصار اللعب مكشوفًا ..

• لقد صار صوته جديرًا به .. صوت دب تعلم الكلام حديثًا .. وهذا الدب تزوج من بئر ..

قلت له وأنا أتراجع أكثر :

ـ « إذن .. الأمر ترتيب لظهورك .. السيطرة على الأرض .. هذا نوع من الطقوس .. »

قال وهو يتقدم نحوى فى تؤدة (لم أدرك مدى ضخامته إلا الآن) :

ـ « لابد كى يحكم (أبراكساس) الأرض أن تكون جاهزة لاستقباله .. لابد من أن يسود الدم . وأن تسيطر الغيلان .. لابد من أن تصير الأرض جحيمًا .. »

كنت أضع يدى فى جيبى وأواصل التراجع ..

فجأة تصلب .. تراجع للخلف ..

رأيته يترنح .. يحاول الدنو منى مرارًا ثم يفشل ..

حظ حسن ! لكن لا أدرى إلى متى يستمر ..

« هو ملك العالم السفلى ، والشر الذى لا يمكن استيعابه بالعقل البشرى .. » هكذا وصفه عالم رصين هو (يانج) .. بعبارة أخرى يمكن القول إننى أواجه الشيطان نفسه الآن .. رئيس مجلس إدارة نادى الغيلان هو الشيطان ذاته ..

رحت أستعيذ بالله من الوسواس الخناس ، وأنا أواصل الضغط على قرص الجهاز فى جيبى ..

لقد أنذرنى مخترعه من استعمال الموجات العالية حتى لا أؤذى نفسى والآخرين .. الآن أراهن على هذه الموجات عالية التردد فى أن تخيف هذا الشىء ..

لقد صرت مغلفًا بطاقة إستاتيكية عاتية .. الخواجة (تسلا) يثبت عبقريته للمرة الألف ..

هنا سمعنا صوت طلقات الرصاص والصراخ .. ليس لدى سوى تفسير واحد لهذا الذى أسمعه ..

فجأة رأيته ينظر لى نظرة نارية ، ثم يصيح بصوت جهنمي :

ـ « سوف نلتقى ثانية أيها الفانى !!! »

وتعالى صوت طلقات الرصاص .. هناك عدد هائل من الرجـال هنا ..

رأيته يفتح بابًا جانبيًا فيخرج منه مسرعًا ..

وفى اللحظة التالية رأيت خمسة رجال شرطة يقتحمون المكتب ويحيطون بى آمرين إياى أن أرفع يدى ..

كانوا فى حالة توتر عصبى مريعة ، فلو حركت حاجبى لأفرغوا فىَّ طلقاتهم .. لكن هذا كان أجمل منظر رأيته فى حياتى ..

* * *

وفى ضوء الكشافات بالخارج خرجت (غادة) باكية رافعة ذراعيها ..

دوى صوت ترابيس المدافع موشكة على الانطلاق ، لكنها صرخت وهى تجثو على ركبتيها من فرط وهن ورعب :

ـ « أنا مثلكم ! لا تطلقوا النار .. »

هرع نحوها جنديان يحملان بطانية ولفاها فيها وأبعداها عن مدخل الفيلا .. وسرعان ما تكرر ظهور الضحايا واحدًا تلو الآخر .. كلهم كانوا يرتجفون من الصدمة العصبية لا البرد ..

كانوا سبعة ..

أما الثامن فكان أنا ..

خرجت والكشافات تعمى عينى .. فصاح (عادل) من مكان ما :

ـ « (رفعت) ! تعال هنا يا أحمق .. »

واحتضننى ولثم خدى قائلاً :

ـ « لم نتصور أنك هنا .. »

ـ « أنا كنلك لم أعرف أن هناك مكتبًا فى هذا التكوين السرى .. رئيس مجلس الإدارة هو .. هو الشيطان ذاته ! »

ـ « يا حلاوتك ! »

قالها فى سخرية ، وربت على صلعتى ..

ـ « اخرس وإلا وجدت نفسك فى مستشفى الأمراض العقلية .. هذه أشياء لا تقال فى التقارير الرسمية .. »

ثم أبعد يده فى ذعر ، وهتف :

ـ « أنت تلسع ! تلسع كباب الثلاجة عندما يكون هناك تلامس أسلاك ! »

ثم نظر لوجهى مذعورًا :

ـ « الدخان يتصاعد من حاجبيك وشعرك .. ماذا حدث لك ؟ »

قلت ضاحكًا :

ـ « لا شىء .. الكثير من الكهرباء الإستاتيكية .. لا تقلق .. لقد توقف الجهاز لأن ملف (تسلا) احترق .. لحسن الحظ لم يفعل هذا منذ عشر دقائق وإلا انتهى أمرى ! »

هنا سمعنا من يصرخ :

ـ « لا تطلقوا النار ! أين بابا ؟ »

كانت تنشج بلا انقطاع .. وركعت على ركبتيها لأنها لم تعد قادرة على الوقوف ..

صاح (عادل) فى حيرة :

ـ « هذه هى (غادة) ..السكرتيرة المفقودة .. لكنها قد خرجت من قبل ! »

فى العادة نقول : (خرج ولم يعد) .. لكننا اليوم بصدد (عاد ولم يخرج) ..

قلت له :

ـ « أين ذهبت الأولى ؟ »

ـ « أخذها رجلان من رجالى إلى سيارة الإسعاف .. »

ـ « جدهما .. وبسرعة .. »

وهكذا هرع الرجال إلى سيارة الإسعاف .. لم يكن أحد هناك .. لا أثر للجنديين اللذين رافقا الفتاة .. ثم وجدهما الرجال خلف إحدى أشجار الحديقة وقد تمزقا تمامًا ..

قلت لـ (عادل) فى إنهاك :

ـ « الأمر واضح .. رئيس مجلس الإدارة غادر الفيلا بهذه الطريقة .. الفتاة الأولى كانت مزيفة .. »

قال فى غيظ :

ـ « تتحدث عن الشيطان .. هل الشيطان بحاجة لحيل والتنكر بشكل فتاة ليفر ؟ »

ـ « يمكنه الفرار أو تمزيقنا وأكثر .. لكنه أراد أن يترك لنا توقيعه بهذه الدعابة البسيطة .. يثبت لنا أننا مجرد حمقى .. »

وخرج ضابط شاب من الداخل ليؤدى التحية .. كان منهكًا وثيابه ملطخة بالدماء .. فقط قال وهو يحشو مسدسه من جديد :

ـ « لقد أبدنا تلك المسوخ يا سيدى .. خسرنا رجالاً كثيرين .. »

قال (عادل) وهو يضع ذراعه على كتف الشاب :

ـ « أحسنتم صنعًا .. سنعمل على ألا يعرف أحد بهذه الواقعة .. لا نريد تدمير حياة الناس بهذه القصص الرهيبة .. من الذى كان غولاً أو فى طريقه ليصير كذلك ؟ سوف نلقى بشك مريب على كل من كان عضوًا فى الجمعية .. من أراد التهام من ؟ سيكون تقريرنا النهائى عن عصابة مسلحة اتخذت مقرًا لها فى هذه الفيلا .. عصابة تخطف الأبرياء ، وقد كلفنا الاشتباك معها الكثير من الضحايا .. تأكد من أن رجالك لن يحكوا تفاصيل ما رأوه .. »

فى هذا الوقت لم أكن أعرف أن (غادة) وجدت نفسها ملقاة فى شارع خلفى .. وحيدة .. لا تذكر الكثير عن أى شىء ..

هكذا أخطأنا مرتين ..

كانت (غادة) الحقيقية هى التى خرجت أولاً .. الثانية هى المزيفة ..

لا تذكر ما حدث لها .. يبدو أن رئيس مجلس الإدارة مزق الجنديين ، ثم ألقاهما فى شارع خلفى ، وعاد ليخرج من المدخل على سبيل المداعبة لنا ..

عرفنا هذا فى اليوم التالى وعرفنا أننا كنا حمقى .. وكان استيعاب هذا عسيرًا ..

لكنى على كل حال أستبعد أننا كنا سنرى (أبراكساس) مكبلاً بالأصفاد يطلب سيجارة من المخبر فى عربة الترحيلات .. هذا يفوق تصورى للأمور ..

* * *

سوف تعود الحياة لمجاريها .. برغم كل من هلكوا ..

سوف يعود د. (سامى) من فترة العلاج القصيرة فى المصحة التى يديرها زميله ..

سوف يسترد الضحايا حياتهم الطبيعية وينسون ما حدث .. مع الكثير من العلاج النفسى طبعًا .. إنهم لم يتحولوا إلى غيلان ولم يصيروا طعامًا للغيلان .. إنهم فى نقطة العودة برغم كل شىء ..

سوف يُدفن (عامر) و(جمال) اللذان هلكا أثناء تبادل الرصاص .. ومعهما (عدنان) طبعًا ..

سوف يعود (حنفى طفاشة) لحياته الجديدة الشريفة ..

من يدرى ؟ ربما تهدم الحكومة الفيلا بالكامل ..

سوف يعود (أبراكساس) لمحاولة خلق البيئة المناسبة لظهوره على الأرض والسيطرة عليها .. فى مكان ما هناك شخص ما يحاول إنشاء ناد ثان للغيلان .. أعتقد أن الكثيرين فى الولايات المتحدة يهتمون بموضوع أكل لحوم البشر هذا ، ولسوف يجد النادى أعضاءه بسهولة هناك ..

تعرفون أننى على وشك الموت وأن أيامى على الأرض معدودة .. يومًا ما سيعود لى (أبراكساس) الرهيب بغية الانتقام ، لكنه سوف يُفاجأ بأننى قد توفيت منذ عامين ، وأننى فى جوار إله رحيم قادر على كل شىء ..

سيكون هذا أكبر مقلب شربه (أبراكساس) فى حياته الكابوسية اللعينة ، وهنا فقط سوف أقول بملء فمى إننى هزمته ..

* * *

فى القصة القادمة نعود لاسترجاع حلقات (بعد منتصف الليل) ..

لدى شريط آخر لم تسمعوه من قبل ، وأعتقد أنه سيروق لكم ..

لكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

المصادر :

- جمال عبدالناصر .أقنعة الرعب . المكتبة الثقافية 466 . الهيئة العامة للكتاب. 1991
- فاروق خورشيد : أديب الأسطورة عند العرب . عالم المعرفة 2002,284
- عدد من مواقع الإنترنت .

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والإثارة



نحن ندعوك إلى هذا النادى الغريب .. هناك مجلس إدارة وجمعية عمومية ومحاضر جلسات وكل شىء ..

شروط العضوية ؟.. هذا يتوقف على امتلاكك لموهبة خاصة جدًا .. د.(رفعت إسماعيل) لم يكن يملك هذه الموهبة وقد تحايل حتى امتلكها وصار عضوًا فعالاً ..

نشاطات الجمعية ؟.. هذا موضوع محرج يطول شرحه .. على الأقل ليس هنا ... فقط تعال معى إلى مكان مظلم مقفر حيث لا يسمع الصراخ ، وهناك ستعرف كل شىء !



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

أسطورة الحلقات المنسية

الثمن فى مصر 400
وما يعادلـه بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



